وزارة التـعليم العـالي و البـحث العلـمي
جامعة عمار ثليجي الأغواط
كلية العلوم الإنسانية والإسلامية والحضارة
قسم التاريخ

العنوان

العلاقات بين المماليك و معول القبيلة الذهبية

(دراسة سياسية حضارية)

مذكرة نهاية الدراسة لنيل شهادة الماستر في التاريخ

تخصص:تاريخ و حضارة المشرق الاسلامي

إعدادالطالبة : *تحت إشراف الأستاذ:*

هواري رقية *د/ شارف خالد*

السنة الجامعية2020 / 2019

كلمة شكر

نحمد اللّه عز وجل و الذي وفقنا في إتمام هذا البحث العلمي ، والذي ألمهنا الصحة والعافية والعزيمة

فالحمد للّه حمدا كثيرا

نتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى الأستاذ المشرف " شارف خالد " على كل ما قدمه لي من توجيهات و معلومات قيمة ساهمت في إثراء المناقشة الموقرة ، دون نسيان كل الأساتذة والذي بفضلهم إنا أتواجد هنا في هذه اللحظة

إهداء

الحمد لله والشكر لله والصلاة والسلام على سيد المرسلين
محمد ﷺ
اهدي ثمرة نجاحي إلى من اقترنت بطاعتهم عبادة الرحمان
(والدي الكريمين)
إلى نبع الحنان والعطاء ورمز المحبة والوفاء إلى من كانت سبب
في الوجود إلى مدرستي الأولى (أمي العزيزة)
إلى الروح الطاهرة التي تركتني هائمة بحبها إلى روح والدي
العطرة (أبي الحاج قدور رحمه الله)
إلى شقيقي العزيزين :سليمان ، معمر
أخواتي وأزواجهم وأولادهم كبيرا وصغيرا
والى توأم روحي الذي شاركني في تعبي زوجي العزيز أدامه الله
لي وعائلته افتخر بانتمائي إليها
إلى أساتذتي الذين أوصلوني إلى هذا المستوى إلى كل من يسعهم
قلبي ولم تسعهم ورقتي .

هماري رقية

2019/2020

مقدمة

لم يكد المسلمون يصلون بالصراع مع القوى الصليبية في الشرق الإسلامي إلى قرب نهايته ، في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، حتى فوجئوا بحركة أخرى اشد هولا ، هي حملات المغول على الدول الإسلامية ، الذين استغلوا ذلك التفكك والانقسام الذي حل بالعالم الإسلامي في تلك الفترة ، فاتخذوا من الشرق الإسلامي مجالا لتوسعهم ، فتقدموا من الشرق إلى الغرب ، حتى دخلوا مدينة بغداد، واستطاعوا إسقاط الخلافة العباسية ، ثم تقدموا غربا إلى الشام، ولم يقف أمامهم سوى دولة المماليك المسلمين في مصر ، التي أنزلت بهم هزيمة مروعة في معركة عين جالوت ، وهي أول هزيمة يتلقاها المغول في تاريخهم الصاخب الطويل منذ أيام جنكيز خان، وأوقفت تقدمهم وغيرت موازين القوى ، حتى تحقق لها تطهير بلاد الشام من نير الاحتلال المغولي والصليبي معا ومما يستدعي النظر أن الخطر المغولي لا يقل خطورة عن الحملات الصليبية، فقد كانت حملات المغول على ا مركز الحضارة الإسلامية ، وقيام دولتهم الكبرى التي كانت تضم الصين وفارس وما بين النهرين واسيا الصغرى وشرق أوربا أهم حوادث التاريخ في القرنين السابع والثامن الهجريين ، والثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، ومع أن غارات البدو على البلاد المتحضرة أمر مألوف إلا انه ليس هناك قوم آخرين غير المغول قد استطاعوا أن يغزو في مدة قصيرة مثل هذه الأقطار التي كانت قد بلغت أوج حضارتها ومدنيتها

وحدث في الشرق الإسلامي في ذلك الوقت من أسباب التشاحن والتخاصم والتصادم بين القوى الإسلامية ، ما سهل من مهمة المغول في الشرق الإسلامي وجعلهم يقهرون القوى الإسلامية الواحدة تلو الأخرى ، ولا شك أن استيلاء المغول على هذه المنطقة الفسيحة من العالم نتيجة ضروب من القسوة البالغة التي أدت إلى انقراض دول وذهاب عروش ، وقتل ألاف عديدة من السكان ، وتخريب أمهات المدن

و قد شهد القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي ظهور اقوام همجية ، و هي المغول ، يقودها شخصية قوية وصلبة، إنه جنكيز خان ، الذي وحد القبائل المغولية و أخضعها لسلطته ، ثم توجه نحو السيطرة على العالم ، و بدأ جيشه ينشر الرعب و الدمار أينما حل ،أدى إلى تأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف ، قسّمها بين أبنائه الأربعة .

أكمل أحفاده المشروع التوسعي الذي تركه ، فتكونت أربع ممالك استقلت كلٌ منها عن الأخرى بإدارة شؤونها ، و كان توسعها على حساب البلاد الإسلامية ، اتجه " باتو بن جوجيبن جنكيز خان " شمالاً و أخضع قبائل القفجاق التركية و بلاد البلغار ، ثم اتجه إلى بلاد الروس و منها عبر إلى أوربا ، و أسس بعدها مملكة القبيلة الذهبية ، و هي إحدى الممالك الأربع .

كانت هذه القوة أكبر خطر يهدد الإسلام ، أصبحت من أقوى دفاعاته ، حيث انصهر المغول في الحضارة الإسلامية ، و أصبح قادتها من أعظم الرجال الذين عرفهم التاريخ الإسلامي ، حيث ظهر سلاطين المغول يطبقون أحكام الشريعة الإسلامية ، و من أعظم هذه الشخصيات هو "بركة خان" أول خان مغولي من أسرة جنكيز خان يعتنق الإسلام و و بفضل هذا السلطان ظهرت القبيلة الذهبية كأول خانية تتحول إلى الإسلام ، و كان لها دور كبير في تغيير خارطة العالم الإسلامي في العصر الوسيط .

و كانت طبيعة الشعوب القاطنة في الرقعة الجغرافية التي شغلتها مملكة القبيلة الذهبية ، لها أهمية كبيرة ، حيث تساعد السكان المحليين من أتراك و تركمان ، خاصة المسلمين منهم ، خانات المغول المسلمين ، في نشر الإسلام في تلك المنطقة ، منذ عهد بركة خان .

عاش على هذه الأرض حضارات كثيرة، ومرّ عليها ممالك ودول لا تُعد ولا تُحصى، منها ما خلدته صحف التاريخ وأعطتها حقها وأنصفتها، ومنها من لم تأخذ الضوء الكافي لتنال حصتها بين هذه الحضارات والممالك، وها نحن هنا نسلط الضوء على مملكة "القبجاق" والتي تُعرف أيضًا بإسم "القبيلة الذهبية".

احتلت مملكة القبيلة الذهبية ، موقعًا استراتيجيًا بين الممالك المغولية ، و هي مترامية الأطراف ، تمتد حدودها من خوارزم إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية ، و من بلاد الروس إلى القوقاز ، و هي قريبة جغرافيا من أوربا ، و انطلاقًا من هذا ، فإن موضوع "القبيلة الذهبية في عهد السلطان بركة خان 654 – 665هـ/1256 – 1267م" موضوع جدير بالبحث ، و ذو ميزة و أهمية كبيرة دفعتني لاختياره .

أسباب اختيار الموضوع :

- ❖ الرغبة الشديدة في البحث عن التاريخ الإسلامي في العهد المغولي .
- ❖ دراسة الفرد المغولي و العمل على إبراز الصورة الحقيقية له .
- ❖ تسليط الضوء على اعتناق مغول القبيلة الذهبية للإسلام ، و أثره على الحضارة الإسلامية ،و القوى القائمة في تلك الحقبة .
- ❖ إبراز الدور الإيجابي لمغول القبيلة الذهبية في انتشار الإسلام ، و تسليط الضوء على شخصية السلطان "بركة خان".
- ❖ المساهمة بدراسة متواضعة ، عن فترة تاريخية هامة من تاريخ آسيا ، خلال العصر المغولي .
- ❖ نقص الدراسات في الجامعات الجزائرية عن القبائل المغولية .
- ❖ دراسة طبيعة علاقات مغول القبيلة الذهبية ، مع القوى السياسية المعاصرة لهم .
- ❖ و باختياري لهذا الموضوع ، حاولت بذل جهدي ، في دراسة تاريخ القبيلة الذهبية ،خاصة بعد اعتناقها الإسلام .

أهداف الدراسة :

- ❖ إعطاء لمحة تاريخية عن القبيلة الذهبية ، و سكانها ، و موقعها .
- ❖ إبراز أهم عوامل تحول مغول القبيلة الذهبية من الوثنية إلى الإسلام .
- ❖ إبراز دور السلطان "بركة خان" في نشر الإسلام ، و أهم المظاهر الحضارية للإسلام في هذه المملكة .
- ❖ دراسة جانب من العلاقات السياسية ، العسكرية ، و الاقتصادية لمملكة القبيلة الذهبية مع القوى المسيحية و الإسلامية المعاصرة لها .
- ❖ تسليط الضوء على العلاقات بين مغول القفجاق و المماليك في مصر ، و توطيد العلاقات بين المماليك .
- ❖ إبراز الصورة الحقيقية لمغول القبيلة الذهبية و دورهم الإيجابي في الحضارةالإسلامية .

هناك عدة جوانب من تاريخ المغول بقت غامضة و شبه مجهولة لكثير من المثقفين ، و عامة الناس ، إذ بالرغم من دورهم السلبي في الأحداث ، و عن ما هو معروف عنهم ، همجيتهم

و وثنيتهم ، إلا أنه يجب الإشارة إلى دورهم في صناعة تاريخ و حضارة إسلامية في تلك المنطقة و لو لفترة من الزمن ، و هذا ما يفتح المجال لدراسات كثيرة تعطي صورة واضحة عن المغول المسلمين و إنجازاتهم في آسيا .

و هنا نقف على إشكالية البحث : كيف انتشر الإسلام في خانية مغول القفجاق ؟

و من هو بركة خان ؟ ، تندرج عنها مجموعة من التساؤلات :

ما تكون طبيعة الشعوب القاطنة في بلاد القفجاق ؟ ؛ كيف استطاع الإسلام أن يروض هؤلاء المغول الهمجيين ؟ ؛ و ما هي عوامل انتشاره ؟ ؛ و ماهيمظاهر الحضارة الإسلامية التي ميزت مغول القبيلة الذهبية ؟؛و كيف كانت علاقاتهم مع القوى السياسية المعاصرة لهم ؟ .

الدراسات السابقة :

أما بالنسبة للدراسات السابقة ، فكانت بين يدي رسالة ماجستير للدكتور أحمد جلايلي بعنوان "إسلام مغول مملكة تركستان(جغتاي) ، بجامعة الجزائر ، حيث تناول في بحثه مملكة تركستان التي منحت للابن "جغتاي" ، و سلط الضوء على هذه المملكة و كل ما يخصها ، لم يتحدث كثيرا عن الممالك الأخرى .

ساعدتني هذه الرسالة ، في جانب علاقات مملكة القبيلة الذهبية بمغول تركستان و موقف مغول تركستان من صراع هولاكو ، و بركة خان .

- **المنهج المتبع :**

و اعتمدت في بحثي هذا على المنهج التاريخي الوصفي ، القائم على سرد الأحداث ، مع النقد و التحليل لإيصال الأحداث التاريخية .

تضمنت هذه الدراسة مقدمة ، و ثلاث مباحث ، و خاتمة و ملاحق ، جاءت على النحو التالي :

الفصل الأول على شكل مدخل ، و ذلك بإعطاء لمحة تاريخية عن عصر المماليك ، من خلال ذكر الشعوب ، و دراسة تاريخها في تلك المنطقة ، أما العنصر الثاني بعنوان أصول المماليك ، تحت عنوان نشأة المماليك ، أبرزنا فيه متى نشأت دولة المماليك و كيف تأسست . و تكلمنا في المبحث الثاني عن جهود المماليك في دحر الحملة الصليبية السابعة

و قد أوردنا بعض المعارك التي خاضها المسلمون في تلك الفترة ، بينما في المبحث الثالث تناولنا سلطنة المماليك بين شجرة الدر وعز الدين أيبك .

الفصل الثاني ، بعنوان " مغول القبيلة الذهبية و الإسلام " ، و يتضمن ثلاث مباحث ، المبحث الأول بعنوان إسلام بركة خان ، حيث نبرز فيه إسلام بركة ؛ اعتلاءه العرش، و المبحث الثاني ذكرنا سياسته و أعماله ، أما بالنسبة للمبحث الثالث فهو بعنوان عوامل انتشار الإسلام بين مغول القفجاق ، و أبرزنا دور الخوانين ، و دور التجارة و التجار المسلمين .

أما الفصل الثالث ، الذي جاء تحت عنوان العلاقات الخارجية و المظاهر الحضارية لمغول القبيلة الذهبية ، و يشمل ثلاث مباحث ، المبحث الأول ، الذي عنونَّاه بـ: "بالمظاهر الحضارية الإسلامية للقبيلة الذهبية ، و ذيلناه بثلاث عناصر ، العنصر الأول بعنوان المراكز الثقافية و المساجد ، مع إبراز أنواع المساجد و الزوايا المنتشرة في أرجاء الخانية ،و العنصر الثاني بعنوان الحياة العلمية ، حيث تطرقنا إلى استقدام العلماء و تشجيعهم ، و بناء المدارس لتدريس تعاليم الإسلام ، أما العنصر الثالث ، فكان بعنوان المدن و الحواضر ، و ذلك بإعطاء نظرة عن المنشآت الحضارية و خصصنا بالذكر العاصمة سراي و هذا المبحث ككل هو الأهم في الدراسة التي أجريناها .

المبحث الثاني بعنوان "العلاقات مع المغول" و تطرقت فيه إلى علاقات القبيلة الذهبية مع الممالك المغولية (مغول إيران ، و مغول تركستان) .

المبحث الثالث، العلاقات مع المسلمين (دولة المماليك) و عرضت فيه العلاقات السياسية و الدبلوماسية و التجارية ؛ العنصر الثالث بعنوان "العلاقات مع المسيحيين" ممثلة في الإمبراطورية البيزنطية ، و الإمارات الروسية ، و أنهيت دراستي بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه المذكرة .

اعتمدت في دراستي هذه على مجموعة من المصادر و المراجع الأساسية ، و قدموا لي الكثير ، من خلال تعمقي فيها و استخراج المعلومات اللازمة نذكر منها:

المصادر :

- "تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأمصار" للرحالة ابن بطوطة المتوفى سنة 779هـ/1377م ، المعروف بالرحالة ابن بطوطة ، حيث كان لهذا الرحالة زيارة و رؤية عن كثب في بلاد القبيلة الذهبية ، و روى لنا ما شاهده هناك ، خاصة في عهد السلطان مُحَمَّد أوزبك".
- "زبدة الفكر في تاريخ الهجرة" المؤرخ بيبرس المنصور الدوادار ، تقلد مناصب هامة في عهد السلاطين "الظاهر بيبرس" و " الناصر قالوون" ، كتابه مصدر هام عن تاريخ المغول و علاقتهم مع المماليك ، نقله عنه العيني .
- "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي (ت 821هـ/1418م) تولى هذا المؤرخ ديوان الإنشاء في عصر السلطان الملوكي "الظاهر يَرْقوق" ، و هو ما مكنه من الاطلاع على الكثير من الوثائق الهامة عن تاريخ المغول .
- "البداية و النهاية" لابن الكثير .

المراجع :

- تاريخ مغول القبيلة الذهبية ، لسهيل طقوش
- إنتشار الإسلام بين المغول ، عبد الحليم رجب .
- البار مُحَمَّد علي ، كيف أسلم المغول .

قبل أن أتطرق إلى صعوبات بحثي .

حيث منحت "حرب 100عام و انعكاساتها عن انجلترا و فرنسا" ، الذي تنعدم فيه المصادر باللغة العربية ، فكل مراجعه و مصادره باللغتين الإنجليزية و الفرنسية .

واجهت صعوبات عند أخذ موضوع تخرجي ، و مع مدة البحث المحدودة لم يكن لدي الوقت الكافي للترجمة ، و عند استشارة أساتذتي نصحوني بأن هذا الموضوع يصلح لرسالة دكتوراه و ليس مذكرة ماستر ؛ منحت موضوع " العلاقات بين المماليك ومغول القبيلة الذهبية (دراسة سياسية حضارية)" ، الذي لم تكن لدي عنه أي معرفة مسبقة ، إلا أنه موضوع شيق و رائع .

الصعوبات :

كما هو معلوم أن لكل بحث صعوبات ، فقد واجهتني بعضها ، نقص في المادة الخاصة بمغول القبيلة الذهبية ، خصوصا ما تعلق بشخصية بركة خان ، نقص في المصادر ، خاصة في قسم التاريخ .

و في الأخير أشكر الله عزّ و جلّ ، الذي وفقني لإكمال هذه المذكرة ، فما كان من صوب فمن توفيق الله ، و ما كان من تقصير فمن نفسي و من الشيطان ، و أرجوا أن أكون قد أسهمت و لو بالقليل في خدمة العلم .

الفصل التمهيدي :

لمحة تاريخية عن المماليك ومغول القبيلة الذهبية

المبحث الأول : أصل اسم القفجاق (القبشاق) أو (القبيلة الذهبية)

المبحث الثاني : المبحث الثاني : تاريخ المغول

المبحث الثالث : المبحث الثالث : تأسيس دولة المغول

المبحث الأول : أصل اسم القفجاق (القبشاق) أو (القبيلة الذهبية)

يطلق اسم القفجاق (القبشاق) أو (القبيلة الذهبية) golden horde على المغول الذين أقاموا في البلاد التي منحها جنكيز خان قبل وفاته لابنه الأكبر جوشي. وتشمل سهول جنوب روسيا وأقصى غرب آسيا وسيبيريا فيما بين نهر آتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين. وسمى هؤلاء باسم القبيلة الذهبية لأن خيام معسكراتهم كانت ذات لون ذهبي.

انقسمت هذه الدولة بعد جوشي 624 هـ (1227 م) بين أولاده الأربعة عشر الذين كانوا بزعامة أكبرهم أوردا، ثم سيطر أخوه باطو على القسم الغربي من المملكة الذي سمي باسم القبيلة الزرقاء أو القبشاق الغربي، واقتصر حكم أوردا على القسم الشرقي الذي عرف بالقبيلة البيضاء.

ولما كان باطو هذا على قدر من الشجاعة والقوة فقد غزا أوروبا، وتوغل في روسيا وبولندا والمجر 625-640 هـ (1227 -1242م) وحمل اسم خان القبيلة الذهبية بشكل عام وطغى اسمه على اسم أخيه أوردا [1].

وخلف باطو خان ابنه طرطق خان الذي توفي في نفس السنة ليخلفه ابن أخيه وهو بركة خان [2] بن ناظو خان بن جوشي 1256 -1267م (656-666 هـ) الذي اعتنق الدين الإسلامي على يد أحد التجار، فجعل الإسلام دين الدولة الرسمي وأظهر شعار الإسلام وقرب العلماء، كما أسلمت زوجته وبنت لها مسجدا. ورغم محاولات البعض التشكيك في صحة إسلامه إلا أن التاريخ يعلمنا أنه أسلم منذ صغره، وأنه حفظ القرآن الكريم، وأن جيشه كان مسلما يحمل كل فرد سجادة صلاة وهذا أغضب خصومه حتى تآمروا عليه [3].

[1] – د. عاشور، فايد، **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى** دار المعارف ، ص206.

[2] – يروي ابن خلدون، في تاريخه حـ5، ص 534هـ. أنه أسلم على يد الشيخ شمس الدين الباخوري الذي كان مقيما في بخارى، حيث دعاه إلى الإسلام فاستجاب لدعوته وذهب إلى بخارى وأعلن إسلامه وعاهد الشيخ على العمل على نشر الإسلام.

[3] – جمال سرور، **دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده** ، القاهرة 1960م. ص 102 .

وبما أن هذه القبيلة كانت على عداء دائم مع أقربائهم وجيرانهم مغول فارس الذين " كان يتزعمهم هولاكو وخلفاؤه، بسبب خلافاتهم على الأرض وعلى زعامة المغول، فإنه كان من الطبيعي أن يتعاون القفجاق مع أكبر دولة إسلامية تحمي الإسلام والمسلمين وهي دولة المماليك، العدوة الطبيعية لأعدائهم مغول إيران، كما كان من الطبيعي أيضا أن يتحالف مغول إيران مع الصليبيين أعداء المماليك.

وازدادت حاجة كل منهما إلى حليفه بازدياد الصراع بين هولاكو وبركة خان عام 661 هـ (1262م) عندما هزم بركة خان زعيم القبيلة الذهبية هولاكو خان زعيم مغول إيران، فقام هولاكو بالانتقام من تجار من القفجاق تابعين لبركة خان بأن قتلهم في بلاده، فأغضب ذلك بركة خان فأمر أفراد جيشه الذين كانوا يحاربون مع هولاكو أن ينضموا إلى الظاهر بيبرس ففعلوا [1].

المبحث الثاني : تاريخ المغول

يعود أصل المغول إلى هضبة منغوليا في صحراء غوبي الواقعة على أطراف بلاد الصّين الشّماليّة، وقد كانت قبائل المغول تعيش جنباً إلى جنب مع قبائل أخرى وكان فيما بينها صراع وقتال وخصوصاً مع التّتار، وقد كانت هذه القبائل جميعها تعبد الكواكب والأوثان كما كانت ديانة الشّامانية منتشرة فيما بينهم وهذه الدّيانة تُقدس أرواح الأجداد وتُقدم الحيوانات المفترسة كقرابين، وعلى الرّغم من الصّراع القائم بين القبائل إلّا أنّهم استطاعوا التّوحد وتأسيس أكبر إمبراطوريّة في التّاريخ وفي مدّة قصيرة، وقد امتدت الإمبراطوريّة المغوليّة من سيبيريا وبحر البلطيق شمالاً إلى حدود الجزيرة العربيّة الشّماليّة وبلاد الشّام وفلسطين جنوباً، ومن الجزر اليابانيّة والمحيط الهادئ من الشّرق إلى وسط القارّة الأوروبيّة من الغرب.[2]

[1] – جمال سرور: **دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده**، نفسه ،ص110.

[2] – عاشور، فايد، **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى** مرجع سابق ، ص113 .

يَذكر المؤرخون أنّ المغول كانوا ينقسمون إلى ستة قبائل رئيسيّة وهذه القبائل وهي: [1]

قبيلة القيات الصّغيرة الّتي جاء منها جنكيز خان، وقد كانوا يعيشون في جبال قراقورم وشواطئ الشّعب العليا.

قبيلة الأويرات وهي قبيلة كثيرة العدد كانت تقيم في المنطقة الواقعة بين بحيرة بايكال ونهر أونن.

قبيلة النّايمان وهي من قبائل الأتراك الّذين كانوا يغلب عليهم الطّابع المغولي وكانوا يقيمون في أقاصي الغرب.

قبيلة الكراييت وهي أقوى القبائل المغولية في الفترة الممتدة من القرن الخامس وحتى السّادس للهجرة، وكانت تعيش في جنوب بحيرة البايكال والواحات الشّرقية من صحراء غوبي.

قبيلة الماركييت الّتي كانت تمتلك جيشاً جباراً وقوياً، وكانت تعيش في شمال بلاد الكراييت.

قبائل التتار الّتي تُعرف ببطشها وجبروتها إضافة إلى أنّها كانت أكثر قبائل المغول رفاهيّة

[1] – **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى**، مرجع سابق ، ص 58 .

المبحث الثالث : تأسيس دولة المغول

كانت القبائل المغوليّة في حالة مضطربة وهمجيّة ومع هذا الاضطراب كان هنالك محاولات لتوحيدها إلا أنّ هذه المحاولات كانت غير ناجحة، ويَذكر المؤرخون أن جد المغول (بدانتسار) استطاع الوصول إلى زعامة القبيلة بدهائه كما استطاع ابنه (قيدو) أن يزيد من رعاياه وأن يتخذ لنفسه لقب خان وهنا كانت بداية تأسيس مملكة المغول.[1]

بعد أن وصل جنكيز خان إلى حكم المغول استطاع توسيع امبراطوريّته وقام بتقسيمها بين أبنائه (من زوجته الأولى) وهذا الأمر كان ينص عليه اليساق (تشريع المغول)، فكانت روسيا، والقوقاز، وخوارزم، وكذلك بلغار (مدينة قازان في روسيا) وكل ما يمكن ضمّه من الجهة الغربيّة تحت سيطرة ابنه الأكبر جوجي، أما ابنه جغطاي فقد كانت تركستان الغربية وبلاد الأويغور (ولاية كانسو في الصّين) وكذلك بلاد ما وراء النّهر تحت سيطرته، وكانت خراسان وفارس وكل منطقة يمكن ضمّها من بلاد العرب وآسيا الصّغرى تحت سيطرة ابنه تولوي، أما ابنه أوغطاي فقد أعطاه بلاد المغول والخطا (تركستان الشّرقيّة) والصّين وكل ما يمكن ضمّه من الجهة الشّرقيّة.[2]

[1] – عاشور، سعيد عبد الفتاح ، **العصر المماليكي في مصر والشام** ، ط دار النهضة العربية 1965، ص 226 .

[2] – **العصر المماليكي في مصر والشام** ، مرجع سابق ، ص ص 227 . 228 .

الفصل الثاني :

قيام دولة المماليك

المبحث الأول : أصول المماليك و نشأتهم

المبحث الثاني :المبحث الثاني : جهود المماليك في دحر الحملة الصليبية السابعة

المبحث الثالث : سلطنة المماليك بين شجرة الدر وعز الدين أيبك

المبحث الأول: أصول المماليك ونشأتهم:

أولاً: من هم المماليك؟: المماليك، جمع مملوك، وهم من الرقيق الذين كانوا يشترون يستخدمون لأغراض عديدة في المجتمعات منذ القدم، ويعتبر الرقيق الأتراك أول من استخدموا في الجندية في الدولة الإسلامية زمن الأمويين، إذ يذكر الطبري بأن نصر بن سيار، والي الأمويين على خراسان، اشترى: ألف مملوك من الترك وأعطاهم السلاح وحملهم على الخيل [1]، هي إحدى الدُول الإسلاميَّة التي قامت في مصر خِلال أواخر العصر العبَّاسي الثالث، وامتدَّت حُدُودها لاحقًا لِتشمل الشَّام والحجاز، ودام مُلكُها مُنذُ سُقُوط الدولة الأيوبيَّة سنة 648هـ الموافقة لِسنة 1250م، حتَّى بلغت الدولة العُثمانيَّة ذُروة قُوَّتها وضمَّ السُلطان سليم الأوَّل الديار الشَّاميَّة والمصريَّة إلى دولته بعد هزيمة المماليك في معركة الريدانيَّة سنة 923هـ الموافقة لِسنة 1517م.

يُقسم المؤرخون الدولة المملوكيَّة إلى فرعين أو دولتين هُما: دولة المماليك البحريَّة ودولة المماليك البُرجيَّة. حكم المماليك البحريَّة من سنة 648هـ الموافقة لِسنة 1250م إلى سنة 784هـ الموافقة لِسنة 1382م، وكان أكثرهُم من التُرك والمغول. وحكم المماليك البُرجيَّة من سنة 784هـ الموافقة لِسنة 1382م إلى سنة 923هـ الموافقة لِسنة 1517م، وكانوا من الشركس . والمماليك أُصُولهم رقيقٌ مُحاربين، استقدمهم الخُلفاء العبَّاسيين الأوائل من تركستان والقوقاز وغيرها وجعلوهم حُرَّاسًا لهم وقادةً لِجُيُوش المسلمين، وقد ازداد نُفُوذ المماليك بِمُرور الزمن حتَّى أصبحوا يُهيمنون على الخِلافة وعلى مركز صناعة القرار، مُستفيدين من ضِعف الخُلفاء وتراجُع نُفوذهم. وحذا السلاطين والأُمراء المسلمين حُذو الخِلافة في بغداد، فكان لِكُلٍ منهم جماعةً من المماليك الأشدَّاء والكفوئين عسكريًّا، ومن هؤلاء السلاطين الأيُّوبيين الذين حكموا مصر والشَّام تحت الرَّاية العبَّاسيَّة. ولما مات آخر سلاطين بني أيُّوب، وهو الملكُ الصَّالح نجمُ الدين أيُّوب، سنة 647هـ الموافقة لِسنة 1249م، كتمت زوجته شجر

[1] أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري ، **تاريخ الطبري، عصر الدولة الأموية**، بيت الأفكار الدولية ، (224 هـ - 310 هـ).الجزء 10 ، صـ47.

الدُّر نبأ موته إلى أن حضر ابنه توران شاه من الجزيرة الفُراتيَّة إلى القاهرة. وحاول توران شاه أن يُقدِّم مماليكه الذين اصطحبهم معه من الجزيرة، فعيَّنهم في مناصب الدولة، فما كان من المماليك القُدماء في مصر إلَّا أن ائتمروا به وقتلوه، ثُمَّ نصَّبوا شجر الدُّر سُلطانة عليهم في سنة 1250م، وهي أوَّل امرأة وُلّيت شُؤون المسلمين. [1]

ظهر المماليك بِمظهر مُنقذي العالم الإسلامي من الضياع والزوال بعد سُقُوط بغداد عاصمة الدولة العبَّاسيَّة والخِلافة الإسلاميَّة في يد المغول بِقيادة هولاكو خان، ومقتل آخر خُلفاء بني العبَّاس أبو أحمد عبد الله المستعصم بِالله. فقد سار المغول لِغزو الشَام وهدَّدوا مصر بِمصيرٍ مُشابه لِمصير بغداد كي لا تقوم لِلإسلام قائمة بعد ذلك، فأرسل سُلطانُ المماليك سيفُ الدين قُطُز جيشًا عرمرميًّا إلى فلسطين لِصدِّ التقدُّم المغولي وحماية قلب الديار الإسلاميَّة، فهزم المسلمون المغول في معركة عين جالوت بِشمال فلسطين سنة 1260م، وردُّوهم على أعقابهم. أضف إلى ذلك، ورث المماليك عن الأيُّوبيين تصميمهم على مُحاربة الصليبيين وإجلائهم عن المشرق، لِذلك ما كادوا يفرغون من مُحاربة المغول حتَّى انصرفوا إلى مُحاربة الصليبيين. كان الملكُ الظَّاهر بيبرس أوَّل من تابع مسيرة الجهاد ضدَّ الصليبيين، فهاجمهم بعد انتصاره على المغول، فصارت مُدنهم وقلاعهم تسقط واحدة بعد الأُخرى في يد المسلمين، فقد استعاد بيبرس الكرك وقيسارية وصفد ويافا وجُبيل وعرقة ما بين سنتيّ 1263 و1266م، وفي سنة 1268م استعاد المسلمون أنطاكية وزالت إمارتها الإفرنجيَّة من الوُجود. وجاء السُلطان سيفُ الدين قلاوون يُكمل عمل سلفه بيبرس، فاسترجع قلعة المرقب في سنة 1281م، وطرابُلس الشَّام والبترون في سنة 1289م. وتُوفي السُلطان قلاوون في سنة 1290م وهو يُهيِّء حملة لاسترجاع عكَّا، فقام بهذه المهمَّة بعده ابنه الملك الأشرف صلاحُ الدين خليل واستولى على عكَّا سنة 1291م. وقد أثار سُقُوطها، وهي المرفأ الرئيسي لِلصليبيين، القلق والذُعر الشديدين في نُفُوسهم، فجلوا عن المدن الأُخرى الباقية في أيديهم، مثل صُور وصيدا وبيروت، وركبوا البحر عائدين إلى

[1] - جحا، شفيق؛ البعلبكي، **المُصوَّر في التاريخ**، ط 10 ، بيروت، لُبنان: دار العلم للملايين. ص 97 - 103.

بلادهم، لِتنتهي بِذلك الحُرُوب الصليبيَّة بعد أن استمرَّت مائة وأربعًا وتسعين سنة. [1] أعاد المماليك إحياء الخِلافة العبَّاسيَّة في مصر بعد سُقُوط بغداد، لكنها كانت خِلافة صوريَّة هدف السلاطين المماليك إلى جعلها سندًا لِسلطنتهم ودعمًا روحيًّا لها يجعلها مهيبة الجانب. [2]

أصول المماليك :

المملوك، جمعه مماليك، هو العبد الذي سُبي ولم يُملك أبواه، والعبدُ القن هو الذي مُلك هو وأبواه. والمملوك عبدٌ يُباع ويُشترى. [3] ولم تلبث التسمية أن اتخذت مدلولًا اصطلاحيًّا خاصًّا في التاريخ الإسلامي، إذ اقتصرت، مُنذُ عهد الخليفة العبَّاسي أبو العبَّاس عبدُ الله المأمون (198 – 218هـ \ 813 – 833م)، ثُمَّ أبو إسحٰق مُحمَّد المعتصم بِالله (218 – 227هـ \ 833 – 842م) على فئة من الرقيق الأبيض، كان الخُلفاء وكبار القادة والوُلاة في دولة الخِلافة العبَّاسيَّة، يشترونهم من أسواق النخاسة البيضاء لاستخدامهم كفرقٍ عسكريَّةٍ خاصَّة، بِهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نُفوذهم. وأضحى المملوك، مع مُرُور الوقت، الأداة العسكريَّة الوحيدة في بعض الدُول الإسلاميَّة. وكان مصدرهم، آنذاك، بلاد ما وراء النهر. واشتهرت مُدن سمرقند وفرغانة وأشروسنة، والشَّاش وخوارزم، بِأنها المصادر الرئيسيَّة لِتصدير الرقيق الأبيض ذوي الأُصُول التُركيَّة، وتمَّ ذلك بِإحدى الطُرق الثلاث: الشراء أو الأسر في الحُرُوب أو الهدايا التي كان يُؤديها وُلاة أقاليم بلاد ما وراء النهر على شكل رقيق إلى الخليفة. ويبدو أنَّ الخليفة المعتصم هو أوَّل خليفة اعتمد، بشكلٍ أساسيٍّ، على العُنصر التُركي، نظرًا لِمقدرتهم القتاليَّة المميزة، حتَّى أضحى الحرس التُركي يُمثِّلُ دعامةً من دعائم الخِلافة أيَّام حُكمه، فاقتناهم مُنذُ أن كان أميرًا. فكان يُرسلُ سنويًّا من يشتري له منهم، حتَّى اجتمع لهُ في أيَّام المأمون زهاء ثلاثة آلاف. ثُمَّ تولَّى الخِلافة في ظل ظُروفٍ من الصراع العنيف بين العرب من ناحية والفُرس

[1] - جحا، شفيق؛ البعلبكي، **المُصوَّر في التاريخ**، **مرجع سابق**، ص 81 - 82.

[2] - ابن عبد الظاهر، مُحيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين السعدي المصري؛ تحقيق ونشر: عبدُ العزيز الخويطر ، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**1976 ، ص 99 - 100.

[3] - مُحَمَّد سهيل ، **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشَّام** بيروت - لُبنان: دار النفائس.ط 4 ،2015 ، صفحة 15 - 16

من ناحيةٍ أُخرى بِالإضافة إلى اختلالٍ في التوازنات بين العناصر التي تكوَّنت منها دولة الخِلافة العبَّاسيَّة. فلم يثق المعتصم بِالفُرس نظرًا لِسُوء العلاقة بينهم وبين بني العبَّاس مُنذُ انتقال المأمون من مرُّو إلى بغداد واستحالة التوفيق بين مصالح الطرفين، ولم يثق بِالعرب أيضًا نظرًا لِكثرة تقلُّبهم واضطرابهم وقيامهم ضدَّ الخُلفاء، بِالإضافة إلى أنَّ هؤلاء فقدوا كثيرًا من مُقوِّمات قُوَّتهم العسكريَّة والسياسيَّة في ذلك الوقت. حملت هذه المعطيات، الخليفة المعتصم على أن يُوكِّل أمر سلامته الشخصيَّة إلى فرقة من العُنصُر التُركي، فاستكثر من شراء التُرك بِهدف الحد من النُفُوذين العربي والفارسي، حتَّى بلغت عدَّتهم ثمانية آلاف مملوك، وقيل ثمانية عشر ألفًا. [1] وخصَّهم بِالنُفُوذ، وقلَّدهم قيادة الجُيُوش، ومكَّنهم في الأرض، وجعل لهم مركزًا مُتفوقًا في مجال السياسة. وسُرعان ما نمت قُوَّتهم، فأخذوا يتدخَّلون في شُؤون الخِلافة، حتَّى أمست دولة الخِلافة العبَّاسيَّة في أيديهم، يفعلون ما يُريدون، يعزلون خليفة ويُولُّون آخر، حتَّى أنَّ بعض الخُلفاء قُتلوا نتيجة مُؤامراتهم. وأضحى العُنصر التُركي رُكنًا هامًّا في المجتمع الإسلامي مُنذُ العصر العبَّاسي الثاني (232 – 334 هـ \ 847 – 946م)، فقامت الدُويلات المستقلَّة ذات الأُصُول التُركيَّة والفارسيَّة في كنف دولة الخِلافة العبَّاسيَّة بعد أن دبَّ فيها الضُعف، وغدا التُرك وسيلة الخُلفاء لِلقضاء على هذه الحركات الاستقلاليَّة، خاصَّةً عُمَّال ووُلاة الأطراف الذين استقلُّوا بِولاياتهم[2]

[1] - مُحَمَّد سهيل ، **مرجع سابق** ، ص 17 – 18 .

[2] - المقريزي، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار** الجُزء الأوَّل ، بيروت - لُبنان: دار الكُتُب العلميَّة. ط 1 ، 1418 هـ ، صفحة 168.

المبحث الثاني : جهود المماليك في دحر الحملة الصليبية السابعة:

عندما قرر الصليبيون الزحف نحو القاهرة توفي الملك الصالح أيوب، وكانت محنة عظيمة ألمت بالمسلمين[1]، وكان عمره عند وفاته 44 سنة، وقد عهد لولده الملك المعظم تورانشاه ولم يكن موجوداً في مصر، وظهرت على مسرح الأحداث زوجته شجرة الدر وأدركت خطورة إذاعة خبر وفاة زوجها نجم الدين على الجند، فقررت إخفاء خبر الوفاة، ولم يعرف ذلك إلا الخاصة وقدمت وثيقة تحمل توقيع السلطان بتعيين إسمه تورنشاه قائداً عاماً للجيوش ونائباً للسلطان اثناء مرضه، وخلال ذلك كان الصليبيون يتحركون جنوباً ووصلوا إلى مدينة فارسكور في الثاني عشر من ديسمبر 1249م، ومنها تقدموا إلى شار مساح ثم البرامون واصبح بحر أشمون هو الفاصل بين المسلمين والصليبيين، وعند هذه المرحلة توقفت القوات الصليبية واقامت معسكرها على الضفة الشمالية وعملت على تأمين معسكرها بحفر الخنادق وإقامة المتاريس وظلوا على هذا حوالي شهر ونصف، ثم شرعوا في بناء جسر ليعبروا عليه على الضفة الجنوبية لبحر أشموم، ولم تكن عملية إقامة الجسر بالأمر الهين، فقد أمطرهم المسلمون وابلاً من القذائف ولم يتمكنوا من إقامته وأخيراً نجح الصليبيون في التعرف على مخاضة ـ دلهم عليها أحد العربان وفي رواية أحد الأقباط[2] ، بعدما رشوه بالمال، تمكنوا من العبور إلى المعسكر الإسلامي وكانت خطة الملك لويس أن يعبر هو واخوته وجزء كبير من الجيش المخاضة إلى الجنوب، ويقوم بقية الجيش الصليبي بحراسة المعسكر الصليبي، وبعد إتمام عملية العبور تقوم الفرقة المخصصة للحراسة باستكمال عملية إقامة الجسر، وإذا تم النصر على القوات الإسلامية في المنصورة يتقدم الجيش الصليبي إلى القاهرة، وعبرت القوات الصليبية في عجز الثامن من فبراير عام 1250م وكانت عملية شاقة وبطيئة بسبب عمق المخاضة، وكان في طليعة القوات الصليبية الكونت آرتو الذي شن على القوات

---

[1] على مُحَمَّد الصلابي ، **الايوبيين بعد صلاح الدين الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة**ار بن الجوزي ، القاهرة ،2008 ، صـ353.

[2] قاسم عبدو قاسم و علي السيد علي ،**الايوبيين و المماليك التاريخ السياسي و العسكري**عين للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية ،مطابع الهداية ، الجيزة ، د س ، صـ85.

الإسلامية المواجهة له هجوماً، وحقق نصراً عليها، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير فخر الدين أسرع بدعوة القوات الإسلامية والتحم مع الصليبيين في معركة عنيفة وقع فيها فخر الدين شهيداً، فغسل بذلك عار إنسحابه من جيزة دمياط واغتر الكونت آرتو بالنصر الذي أحرزه ولم يبال بأوامر الملك لويس التاسع ونصائح القادة الصليبيين بالتريث حتى تتكامل القوات الصليبية وأراد أن ينفرد بشرف النصر لنفسه[1].

1 . معركة المنصورة: اغتر روبرت آرتو بقوته، وتابع زحفه إلى المنصورة لاقتحامها، والقضاء على الجيش الأيوبي، وأعرض عن توسلات الراوية بأن ينتظر وصول الملك والجيش الرئيسي، ونصحه بعضهم بالحيطة والحذر، ثم بادر، باقتحام المنصورة [2]، فأضحت المنصورة ساحة لحرب الشوارع وتولى قيادة المسلمين الأمير بيبرس البندقاري فأقام جنده في مراكز منيعة داخل المدينة، وانتظروا حتى تدفق الصليبيون بجموعهم إلى داخلها، ولما أدركوا أنهم بلغوا أسوار القلعة التي إتخذها المصريون مقراً لقيادتهم، خرج عليهم المماليك في الشوارع والحارات والدروب وأمعنوا في قتالهم، ولم يستطع الصليبيون أن يلتمسوا لهم سبيلاً إلا الفرار، فوقع الاضطراب بين الفرسان ولم يفلت من القتل إلا من ألقى بنفسه في النيل، فمات غريقاً أو كان يقاتل في أطراف المدينة [3].، وكانت المنصورة مقبرة الجيش الصليبي [4]، وأول إبتداء النصر على الفرنج، وجزع لويس التاسع بتلك الصدمة لكنه تملك نفسه، وبادر إلى إقامة خط إمامي لمواجهة ما توقعه من هجوم، من قبل فرسان المماليك ضد قواته، كما اقام جسراً من الصنوبر على مجرى البحر الصغير عبر عليه النيل مع رجاله ووزع رماته على الطرف البعيد للنهر حتى يكفلوا الحماية للجند عند عبورهم متى دعت الضرورة إلى ذلك، لكن المماليك لم يتركوه وشأنه وبادروا إلى شن هجوم على المعسكر الصليبي وقاد الملك الفرنسي المعركة بنفسه وأجبر المسلمين على التراجع نحو

---

[1] مُحَمَّد سعيد عمران ، **تاريخ الحروب الصليبية**،دار المعرفة الجامعية ،الاسكندرية ، 2000 ، ص312.

[2] الحملات الصليبية الرابعة الخامسة، السادسة والسابعة ، **مرجع سابق** ، ص356.

[3] مُحَمَّد سهيل طقوش ،**تاريخ الأيوبيين في مصر و بلاد الشام و اقليم الجزيرة**1174 م – 1263م ، ط2 ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ،2008 ، ص150.

[4] تاريخ الأيوبيين في مصر و بلاد الشام و اقليم الجزيرة ، **مرجع سابق** ، ص386.

المنصورة، وعلى رغم من الانتصار الصليبي، إلا موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً بسرعة واضحة، بعد أن قلت المؤن، كما فقدوا نسبة مرتفعة من فرسانهم في معركة المنصورة، وانتشرت الأمراض في معسكرهم، وظل الملك الفرنسي زهاء ثمانية أسابيع، في معسكره أمام المنصورة، آملاً بأن يحدث إنقلاب في مصر، أو يقوم المصريون بثورة على الحكم الأيوبي.

2 . تورانشاه يقود المعركة: وصل تورانشاه إلى المنصورة في 17 ذو القعدة 647هـ/ 21 شباط 1250م بعد أن أعلن سلطاناً في دمشق، وهو في طريقه إلى مصر، فأعلنت عندئذ وفاة الصالح أيوب وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور، فأعد خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين [1]. وكان وصوله إلى مصر إيذاناً بإعادة إرتفاع الروح المعنوية عند المصريين وبين صفوف المماليك وتيمّن الناس بطلعته[2]. وأمر بإنشاء اسطول من السفن الخفيفة نقلها إلى فروع النيل السفلى وأنزلها في القنوات المتفرعة، فأخذت تعترض طريق السفن الصليبية التي تجلب المؤن للجنود من دمياط، فقطع بذلك الطريق عليها وحال دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم دمياط[3]، وفقد الصليبيون عدداً كبيراً من سفنهم قدّرتها المصادر بما يقرب من ثمان وخمسين سفينة، انقطع المدد من دمياط عن الفرنج ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام، ولا يقدرون على الذهاب وتشجع المسلمون وطمعوا فيهم وأدرك لويس التاسع استحالة الزحف نحو القاهرة في ظل هذه الاوضاع وبدأ يفكر في العودة إلى دمياط وفعلاً أمر بالإرتداد وأحرق الصليبيون ما عندهم من الخشب وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط، كما أدرك أن عملية الانسحاب لن تكون سهلة، وأن المماليك سوف يطاردون جيشه لذلك لجأ قبل أن يبدأ بعملية الإنسحاب إلى فتح باب المفاوضات مع تورانشاه على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس [4]، غير أن الوقت قد فات على مثل هذه المساومة وكان طبيعياً لأن

---

[1] تاريخ الأيوبيين في مصر و بلاد الشام و اقليم الجزيرة ، **نفسه** ، ص387.

[2] جمال الدين ، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة(813 هـ –874 هـ)** ، الجزء 6 ، وزارة الثقافة و الارشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة ، ص364.

[3] المصدر نفسه ،ص 364 .

[4] تاريخ الأيوبيين في مصر و بلاد الشام و اقليم الجزيرة ، **مرجع سابق** ، ص288 .

يرفض تورانشاه هذا الإقتراح وبخاصة أنه علم بحرج موقف الملك، وفي صباح المحرم عام 648 هـ / نيسان عام 1250م بدأت عملية المهندسون الصليبيون على أن يدمروا الجسر الذي أقاموه لإجتياز البحر الصغير فلم يلبث المماليك أن عبروه وراءهم، وقاموا بعملية مطاردة منظمة، وهاجموه من كل ناحية[1]، وبفضل ثبات الملك الفرنسي وحسن إدارته بعملية الإنسحاب، وصل الصليبيون إلى شرمساح عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط، ولكن كان هذا الملك مريضاً، وأحاط المماليك بجيشه من كل جانب، وراحوا يتخطفونهم، وشنوا عليهم هجوماً عاماً في فارسكور ولم يقو الملك على القتال ، وتم تطويق الجيش بأكمله، وحلت به هزيمة منكرة، ووقع كل أفراده تقريباً بين قتلى وجرحى وأسرى، حيث سيق مكبلاً إلى المنصورة، وسُجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان وعُهد إلى الطواش صبيح بحراسته وخُصّص من يقوم بخدمته، وكانت معظم الحرب في فارسكور، فبلغت عدَّة القتلى عشر' آلاف في قول المقل وثلاثين ألفاً في قول المكثر وأسر من الفرنج عشرات الألوف بما فيهم صناعهم وسوقتهم، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة وأبلت الطائفة المملوكية البحرية . لا سيما بيبرس البندقداري . في هذه المعركة بلاء حسن وبان لهم أثر جميل.

المبحث الثالث : سلطنة المماليك بين شجرة الدر وعز الدين أيبك:

أولاً: شجرة الدر:

1 . شجرة الدر أيوبية أم مملوكية؟ إن معظم المؤرخين وعلى رأسهم المقريزي، صاحب السلوك لمعرفة دول الملوك، يعتبرون شجرة الدر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية في مصر ولقد يطلق عليها إسم دولة المماليك الأولى بإزاء دولة المماليك الثانية التي هي دولة المماليك البحرية، اعتبروها أولى سلاطين المماليك كونها منهم أي من المماليك البحرية، جيء بها جارية مملوكة، فصارت حظيّة الملك الصالح أيوب، وإن كان من الأرجح، أنها ليست من المماليك وهذا ما ذهب إليه عصام شبارو في كتابه السلاطين في المشرق العربي، مملوكة من أصل أرمني، لا تركي، فهي ليست مملوكة تماماً، بما في كلمة

[1] النجوم الزاهرة (6 ـ 364)، تاريخ الايوبيين صـ 388.

مملوك من معنى، إنها قريبة من المماليك، بجهة النشأة، وإن كان المماليك البحرية الصالحية يأتمرون بأمرها، ويخضعون لها، كونها واحدة من أهم حريم الملك الصالح أيوب، هذا فضلاً عن كونها والدة ولده خليل الذي مات وهو طفل صغير. ويعتبر ابن إياس صاحب بدائع الزهور، شجرة الدر آخر سلاطين بني أيوب، كونها زوجة الصالح نجم الدين أيوب، والد تورانشاه وأم ولده خليل الذي توفي في حياة أبيه[1].

2 . شجرة الدُّر تخلع نفسها:

لقد اضطربت الأمور على المستوى الشعبي العام، وعارض الفقهاء والمتعلمون جلوس ((شجرة الدُّر)) على عرش السلطنة، وأدركت السلطانة وزعماء المماليك أنهم يسبحون ضد تيار عارم، لا بد وأن يغرقهم في موجاته[2]، وبعد ثمانين يوماً تنازلت ((شجرة الدُّر)) في الحكم لواحد اختارته بعناية من أمراء المماليك هو عز الدين أيبك التركماني الصالحي، الذي اشتهر بعزوفه عن الصراع حتى ظن الجميع أنه ضعيف، وقبل أمراء المماليك الأقوياء زواجه من شجرة الدُّر وجلوسه على عرش السلطانة، بل أن بعضهم قال: متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته [3]، وبالفعل تزوجت شجرة الدُّر من عز الدين أيبك، ثم تنازلت له عن الحكم، وتم هذا التنازل في أواخر جمادى الثانية من السنة نفسها سنة 648 هـ. وهكذا في غضون سنة واحدة فقط جلس على كرسي الحكم في مصر أربعة ملوك وهم الملك الصالح أيوب ـ رحمه الله ـ ثم مات، فتولى توران شاه ابنه، ثم قتل، فتولت شجرة الدر، ثم تنازلت، فتولى عز الدين أيبك التركماني الصالحي[4].

---

[1] مُحَمَّد بن أحمد ، **بداع الزهور في وقائع الدهور**،تحقيق مُحَمَّد مصطفى ، دار النشر احياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1395 - ط 1 ، ص 89

[2] قاسم عبدو قاسم ، **السلطان المظفر سيف الدين قطز**، دار القلم ، دمشق ،ط 1 ، 1997 ، صـ77.

[3] المصدر **نفسه** صـ77.

[4] راغب السرجان ،**قصة التتار من البداية الى عين جالوت**مؤسسة اقرأ للتوزيع و النشر ، القاهرة ،ط1 ، 2006 ،صـ331.

ثانياً: سلطنة عز الدين آيبك:

تولى عرش مصر السلطان أيبك التركماني وتلقب باللقب السلطاني"الملك المعز" ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أمراء المماليك سناً أو أقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذاً إذ يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس وهذه الحالة الإستثنائية في نظام التدرج المملوكي جعلت بعض المؤرخين مثل أبي المحاسن في كتابة النجوم الزاهرة؛ يتهم أيبك بضعف النفوذ والشوكة وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاءوا غير أن الحوادث دلت على أن أيبك رجل يمتاز بصفات السياسة والحزم والشجاعة، ولم يكن ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين، ويبدو أن أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذي وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف في كتابه النجوم الزاهرة، إذ أنه عاد واستدرك ذلك في كتابه الآخر: المنهل الصافي، فمدح أيبك فيه ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة، وأنه انقذ دولة المماليك من خطر محقق، وإذا تناولنا المشاكل والمصاعب التي واجهت السلطان أيبك، نجد أنها تتمثل في تهديدات الايوبيين والصليبيين في الخارج، وفي ثورات الاعراب في الداخل ثم خطر زملائه المماليك في داخل البلاد وخارجها[1].

معركة بين المماليك والأيوبيين : والتقى الجيشان الأيوبي والمملوكي في العاشر من ذي القعدة 648هـ/ الثالث من شباط 1251م عند العباسية بين مدينتي بلبيس ، والصالحية، إنتصر فيها الناصر يوسف ، في بداية المعركة ، على الرغم من استبسال المماليك، غير أنه حدث أن فرقة من جيش الناصر يوسف، وهم المماليك العزيزية تخلت عن مواقعها في غمرة القتال وانحازت ، بدافع العصبية المملوكية إلى الجيش المملوكي[2]، ولما لم يكن الناصر يوسف مشهوراً بالشجاعة، لم يلبث أن تراجع ولاذ بالفرار عائداً إلى بلاد الشام، في حين عاد المماليك ظافرين ومعهم الأسرى إلى القاهرة، كان لهذه الموقعة أثرها وأهميتها في تثبيت أركان دولة المماليك البحرية الناشة، فقد إستثمر آيبك إنتصاره هذا،

[1] المصدر نفسه صـ124.

[2] تاريخ الأيوبيين في مصر و بلاد الشام و اقليم الجزيرة ، **مرجع سابق** ، صـ398.

فأرسل بعد شهر، جيشاً، بقيادة فارس الدين أقطاي، استولى على غزة [1]، ثم قرر الزحف نحو بلاد الشام للسيطرة عليها، ولكي يضمن النجاح لمهمته حاول استقطاب لويس التاسع، ووعده بإعطائه بيت المقدس فور إستيلائه عليه من الناصر يوسف [2]، ومن جهته رأى الناصر يوسف نفسه مضطراً للإعتماد على حليف قوي يضمن له الصمود وإستمرارية الصراع مع المماليك، فأرسل سفارة إلى عكا يعرض على لويس التاسع التنازل له عن بيت المقدس، مقابل الحصول على مساعدته[3].

سلطنة على ابن المعز ثم تولي سيف الدين قطز: صمم المماليك المعزية، وعلى رأسهم سيف الدين قطز، على أن يقيموا على العرش الذي بات شاغراً بمصرع آيبك صبياً في الخامسة عشر من عمره هو (نور الدين علي)) ابن سيدهم المعز آيبك، وتم ذلك في ربيع الأول سنة 655هـ/1257م ولقبوه الملك المنصور علي، وقد رفض المماليك الاعتراف بالسلطان الصبي، وتجسد رفضهم في عدة إضطرابات عاصفة، استنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بني أيوب في بلاد الشام، وحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك ـ في الأردن حالياً ـ غزو مصر مرتين، لكن الفشل كان من نصيبه [4]، بيد أن هذه الاضطرابات كانت فرصة جديدة لظهور نجم الأمير سيف الدين قطز، فقد قام قطز بالقبض على الآتابك سنجر الحلبي وحبسه في الجب بقلعة الجبل، لأنه كان يطمع في السلطنة بعد مقتل المعز آيبك، ولأنه كان يتحين الفرصة للوثوب على العرش، وأدى ذلك إلى مزيد من الاضطرابات والفوضى، فقد هرب عدد من المماليك البحرية إلى جهة الشام، وطاردهم المماليك المعزية وقبضوا على عدد منهم وأودعوهم سجون القلعة، وخلا الجو لسيف الدين قطز فصار نائب السلطان:.. وصار مدبر دولة الملك المنصور علي [5]. وكان جلسو السلطان الصبي على العرش مسألة قصد بها كسب الوقت حتى يمكن لواحد من كبار المماليك الطامعين في عرش السلطنة أن يحسم الصراع لصالحه، وكان

[1] المصدر نفسه صـ398.
[2] تاريخ الأيوبيين في مصر و بلاد الشام و اقليم الجزيرة ، **مرجع سابق ،** صـ398.
[3] المصدر نفسه صـ400.
[4] السلطان المظفر سيف الدين قطز ، **مرجع سابق** ، صـ80.
[5] المصدر نفسه صـ81 .

هذا مشهداً تكرر كثيراً طوال عصر سلاطين المماليك، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن هذه كانت ممارسة سياسية حظيت بإعتراف الجميع طوال ذلك العصر ومن المهم أن نشير إلى أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثة العرش، إذ طبيعتهم العسكرية من ناحية، وشعورهم بأنهم جميعاً سواء في ناحية أخرى، جعل كبار أمرائهم يعتقدون أنهم جميعاً يستحقون العرش الذي يفوز به اقواهم، واقدرهم على الإيقاع بالآخرين تحقيقاً لمبدأ (الحكم لمن غلب)، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن ظل عرش السلطنة على الدوام محل التنافس والمنازعات بين كبار الأمراء، لا سيما عندما يخلو العرش بسبب موت السلطان، وكان هذا هو الحال عندما مات عز الدين آيبك ولم يشأ ((سيف الدين قطز)) أن يتعجل الأمور ويواجه المنافسين، فأمسك بيده زمام السلطة الفعلية تاركاً للسلطان الصبي شعار السلطنة ولقبها.. ولا شيء أكثر من ذلك وبات عرش مصر قاب قوسين أو أدنى، ثم جاءت الفرصة تسعى إلى قطز، وكان سيف الدين قطز مشغولاً بترتيب الأوضاع السياسية الداخلية لصالحه [1]، على حين كانت الإشاعات تملأ سماء القاهرة بأن السلطان الصبي يريد خلع قطز مملوك أبيه وصاحب اليد البيضاء في توليه عرش البلاد، وإجتمع الأمراء في بيت أحد كبارهم، وتكلموا إلى أن نجحوا في إصلاح الأمور بين الملك المنصور علي وبين مملوك أبيه الأمير قطز،.. وخلع عليه وطيب قلبه وهكذا توطدت مكانة سيف الدين في الدولة [2]، وفي الوقت نفسه كانت الأحوال متردية تماماً بسبب الفتن التي أثارتها طوائف المماليك في القاهرة، كما كان خطر محاولات الغزو الفاشلة التي قام بها المغيث عمر في ذي القعدة 655هـ/ 1257م وفي ربيع الأول سنة 656هـ/ 1258م يقلق باله، بحيث خرج في المرتين للقاء المماليك البحرية وحليفهم الأيوبي وبفضل شجاعة ((سيف قطز)) تم القضاء عل هذا الخطر الأيوبي بيد أنه كان على قطز أن يواصل ترتيب أمور المملكة في الداخل وبعد أن واجه الخطر الخارجي، فقد قبض على جماعة من الأمراء لميلهم إلى ((الملك المغيث عمر)) في هذا الشهر نفسه، وهم: الأمير ((عز الدين آيبك الرومي الصالحي))، والأمير ((سيف بلبان الكافوري الصالحي الأشرفي))، والأمير

[1] المصدر السابق ، نفسه صـ81.

[2] النجوم الزاهرة ، مرجع سابق ، ص43 .

((بدر الدين بكتوت الأشرفي))، والأمير ((بدر الدين بلغان الأشرفي)) وغيرهم، وضرب أعناقهم في السادس والعشرين من ربيع الأول واستولى على أموالهم كلها[1]، وبذلك إزدادت القامة السياسية لسيف الدين قظز طولاً، ولكن الدولة التي يحكمها سلطان في سن الصبى بدت واهنة ضعيفة وغير قادرة على تحمل مؤامرات الصغار ولعبهم بأقدار البلاد والعباد، ثم بدا صدى طبول الحرب التتارية يتردد على حدود السلطنة الوليدة، ولم يكن بوسع السلطان الصبي ((نور الدين علي)) أن يفعل شيئاً إزاء هذا الخطر الداهم، فقد كان يقضي وقته في ركوب الحمير والتنزه في القلعة.. ويلعب بالحمام مع الخدم، ومع كل خبر جديد عن وحشية التتار كانت الأحوال تزداد إضطراباً والقلق يفترس نفوس الناس [2].

وتعين على الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة أن يخطو الخطوة الأخيرة نحو العرش من ناحية وتدعيم نفوذه السياسي الداخلي من ناحية أخرى والاستعداد لمواجهة التتار، من ناحية ثالثة [3]، ومع اقتراب جحافل التتار من الشام أرسل الملك الناصر المؤرخ والفقيه المعروف كمال بن العديم إلى مصر يستنجد بعساكرها وهكذا بدأت الحرب تطل بوجها المرعب، على الساحة السياسية في مصر، وكان النجم الساطع في تلك الساحة هو الأمير ((سيف الدين قطز))، ولما قدم ابن العديم إلى القاهرة، عقد مجلس بالقلعة حضره السلطان الصبي الملك المنصور نور الدين علي، وحضره كبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة، مثل: قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان سيف الدين قطز بين الحاضرين، وسألهم الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لانفاقها على الجنود فأفتى الشيخ عز الدين بفتوته المشهورة التي يأتي تفصيلها عند الحديث عن عين جالوت بإذن الله تعالى، وكان هذا الاجتماع من الأدوات السياسية التي أحسن سيف الدين قطز استغلالها للوصول إلى هدفه النهائي، عرش مصر وقتال التتار، وكان ذلك الاجتماع الذي عقد بحضور السلطان الصبي آخر خطوات قطز صوب عرش مصر وقتال التتار [4]. وبينما كان هولاكو يجتاح أقاليم العالم

[1] السلطان المظفر سيف الدين قطز ، **مصدر سابق** ، ص83.
[2] المصدر نفسه ص83.
[3] السلطان المظفر سيف الدين قطز ، **مصدر سابق** ، ص84.
[4] المصدر نفسه ص88.

الإسلامي الشرقية كان نجم سيف الدين قطز يزداد سطوعاً وتزداد قامته السياسية طولاً، وكأنه على موعد مع التاريخ لكي ينجز مهمته الكبرى في هزيمة الجحافل التتارية الظالمة، لقد استغل قطز إجتماع القلعة لخلع السلطان الصبي، وأخذ يتحدث عن مساوئ المنصور علي، وقال: لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبي صغير لا يعرف تدبير الملك[1]، وساعده على الوصول لهدفه أن مفاسد الملك المنصور علي كانت قد زادت حتى انفض الجميع من حوله واستهتر في اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور وجاءت الفرصة تسعى إلى سيف الدين قطز عندما خرج أمرا ء المماليك المعزية والبحرية إلى الصيد في منطقة العباسية بالشرقية وفي غزة، وعلى رأسهم سيف الدين بهادر والأمير علم الدين سنجر الغتمي، في يوم السبت 24 ذو القعدة سنة 657هـ/1259م وقبض قطز على الملك المنصور وعلى أخيه قاقان وأمهما وإعتقلهم في أحد أبراج القلعة، فكانت مدة حكم المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام. وهكذا اكتملت رحلة المملوك صوب العرش، وصار سلطاناً على الديار المصرية، وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل في نفس اليوم، واتفق الحاضرون على توليته، لأنه كبير البيت ونائب الملك وزعيم الجيش، وهو معروف بالشجاعة والفروسية، ورضى به الأمراء الكبار والخوشداشية وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفر[2].

. ترتيب سيف الدين قطز للأمور الداخلية: لم يكن جلوس قطز على عرش السلطنة نهاية لرحلة المملوك إلى عرش السلطان، إذ كان على السلطان المظفر سيف الدين قطز أن يوطد دعائم حكمه في الداخل قبل أن يتوجه للقاء عدوه في الخارج، فبدأ بتغيير الوزير ابن بنت الأعز، وولى بدلاً منه زين الدين يعقوب عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير، ثم كان عليه أن يواجه معارضة كبار الأمراء الذين قدموا إلى قلعة الجبل، وأنكروا ما كان من قبض قطز على الملك المنصور، ووثوبه على الملك، فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة مصر[3] والشام، وقال سيف الدين قطز في سياق تبريره لما حدث: وإني ما

[1] **السلطان المظفر سيف الدين قطز**ص89، **النجوم الزاهرة**، ص 55 .

[2] السلطان المظفر سيف الدين قطز ، **نفسه** ص90.

[3] السلطان المظفر سيف الدين قطز، **مصدر سابق** ، ص92.

قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم [1]، وأخذ يرضي أمراء المماليك حتى تمكن على حد تعبير المقريزي، وما أن شعر أن سلطته قد رسخت حتى أخذ يتخلص من كل من يمكن أن يشكل تهديداً على عرشه، فأرسل المنصور علي وأخاه وأمه إلى دمياط، واعتقلهم في برج بناه هناك وأطلق عليه أسم برج السلسلة، ثم نفاهم جميعاً إلى القسطنطنية، بعد ذلك قبض السلطان سيف الدين قطز على الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير عز الدين أيدمر النجيبي الصغير، والأمير شرف الدين قيران المعزي، والأمير سيف الدين بهادر، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير عز الدين أيبك النجمي الصغير، والأمير سيف الدين الدود خال الملك المنصور علي بن المعز والطواش شبل الدولة كافور لا لا الملك المنصور، والطواشي حسام الدين بلال المغيثي الجمدار، واعتقلهم، وهكذا تمكن من التخلص من رؤوس المعارضة، ومن ناحية أخرى، بدأ السلطان المظفر سيف الدين قطز يختار أركان دولته ويوطد دعائم حكمه، فحلف الأمراء والعسكر لنفسه، واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع، وأقر الأمير فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي المعروف بالمستغرب أتابكاً وفوض إليه وإلى الصاحب زين الدين تدبير العساكر واستخدام الأجناد، وسائر أمور الجهاد والاستعداد للحرب ضد التتار، لقد ضمن سيف الدين قطز هدوء الأحوال داخل دولته، بيد أنه كان ما يزال متوجساً من ملوك الأيوبيين في بلاد الشام، خاصة الناصر يوسف صلاح الدين صاحب دمشق وحلب، وعندما علم بخبر قدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق، خاف من عاقبة ذلك وكتب إليه خطاباً رقيقاً يحاول فيه تجنب المواجهة وأقسم قطز بالإيمان أنه لا ينازع الملك الناصر في الملك ولا يقاومه، وأكد له أنه نائب عنه بديار مصر، ومتى حل بها أقعده على الكرسي وقال قطز أيضاً: ... وأن أخترتني خدمتك، وإن إخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك عل القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك العساكر صحبة من تختاره[2]. وهكذا ظهرت من قطز معاني من التضحية والتواضع والحرص

[1] السلطان المظفر سيف الدين قطز ، **نفسه** ، صـ92.

[2] السلطان المظفر سيف الدين قطز ، **نفسه** ، صـ92 ، 93 ، 94.

على وحدة الصف ساعدته للتصدي للمشروع المغولي وكسره في عين جالوت يأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله في الفصل القادم.

الفصل الثالث :

مغول القبيلة الذهبية و الإسلام

المبحث الأول :إسلام بركة خان المبحث الثاني : سياسته و أعماله

المبحث الثالث : عوامل انتشار الإسلام بين مغول القفجاق

الفصل الثاني : مغول القبيلة الذهبية و الإسلام

عاش على هذه الأرض حضارات كثيرة، ومرّ عليها ممالك ودول لا تُعد ولا تُحصى، منها ما خلدته صفحات التاريخ وأعطتها حقها و أنصفتها، ومنها من لمتأخذ الضوء الكافي لتنال حصتها بين هذه الحضارات والممالك، وها نحن هنا نسلط الضوء على مملكة "القبجاق" والتي تُعرف أيضًا بإسم "القبيلة الذهبية". برز حبهم للدين الإسلامي حتي في حياتهم اليومية و التي تمثلت في المظاهر الحضارية لهذه المملكة ، فأبو إلا أن تكون مظاهر حضارتهم إسلامية بامتياز .

يعتبر بركة خان[1] من بين الشخصيات المغولية التي تركت أثرًا في تاريخ الإسلام في منطقة آسيا الوسطى ، و قبل التحدث عن اعتلائه العرش و عهده الذهبي في القبيلة الذهبية ، من المفروض التحدث عن مولده و نشأته ، إلا أن المصادر التاريخية المتوفرة لدينا و هي العربية ، لم تذكر شيئًا عن طفولته ، و عن سيرته قبل اعتلائه العرش .

لم يشارك بركة[2] إلى جانب أخيه باتو ، و بقية الأسرة المغولية في عمليات الغزو لجنوب روسيا و أوربا إلا أن أخيه باتو ، كان يكلفهبلسير إلى قوراقورم ، كنائب عنه للاشتراك في القوريلتاي ، و كانت المرة الأولى سنة 644هـ/1246م ، لتنصيب "كيوك"ابن "أوكتاي" ، و المرة الثانية سنة 649هـ/1251م ، لتنصيب "مانكو" ابن "أوكتاي"[3]

[1] أنظر صورة بركة خان فيالملحق رقم : 01، ص75.

[2] – يعتبر الخان المغولي بركة الذي كان قائدًا للقبيلة الذهبية عام 1256-1267م،خان فريدًا منوعه في تاريخ أسرة جنكيز خان بتشرفه، وذلك بأنه وبإجماع المؤرخين أول قائد مغولي يعتنق الإسلام من الأسرة، إلا أنه اختلف في تاريخ إسلامه.

[3] لبار مُحَمَّد علي ، **كيف أسلم المغول** ، دار الفتح للدراسات و النشر ، 2008 ، ص115 .

عَرفت القبيلة الذهبية في عهده و بعدها انتشارًا واسعًا للإسلام ، و ازدهارًا في كل النواحيو قد ساعدت في ذلك عدة عوامل ، سنتطرق إليها في هذا المبحث ، كدور الخوانين الذين جاؤوا من بعده في نشرهم للإسلام و الطرق الصوفية التي لعبت دورا بارزًا ، دون أن ننسى التجارة و التجار المسلمين ، مع إبراز المظاهر الحضارية الإسلامية لهذه القبيلة .

المبحث الأول : إعتناق بركة خان الإسلام

يعتبر بركة خان بن جوجيبن جنكيز خان ، أول خان مغولي تشرف بحلة الإسلام ، إذ أجمع المؤرخون على أنه أول قائد مغولي يعتنق الإسلام ، من أسرة جنكيز خان ، إلا أن الروايات اختلفت في كيفية و تاريخ إسلامه .

الرواية الأولى :

يرى ابن تُغري بردي ، أن إسلام بركة كان قبل ذلك بسنوات ، حيث ذكر أحداث 644هـ أثناء قدوم رسولان من التتار إلى بغداد ، أحدهما من بركة خان ، و اجتمعا بالوزير ابن العلقمي [1] وهذا يعني أنه أسلم قبل توليه العرش بعشر سنوات .

الرواية الثانية :

يقول الرمزي: " بأنه منقذ الإسلام في تلك البلاد ، و قد أسلم بركة خان ، هذا و قد حسن إسلامه ، و جعله الله سببًا لبقاء رمق الإسلام ، و انتعاشه بعد أن شارف على الانعدام" [2] ، وسمى نفسه باسم إسلامي "أبو المعالي ناصر الدين بركة خان" .

---

[1] ابن ثغري بردي ، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة** ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1413هـ/1992م ، ج6 ، ص315 .

[2] الرمزي ، تلفيق الأخبار و تلقيح الآثار، في وقائع غاران و بلغار و ملوك التتار ، المطبعة الكريمية الحسينية ، أورنبورغ ، ج 1، ص404 .

يؤكد القلقشندي أن بركة قد أسلم قبل توليه العرش فيقول : " ...وكان إسلامه – أي بركة- قبل تملكه حين أرسله أخوه "باتو"لإجلاس "مانكو" على كرسي جده جنكيز خان " [1]وتم هذا الإجلاس سنة 649هـ/1251م ، و هذا يعني أنه أسلم عام 1251م .

الرواية الثالثة:

كانبركة خان أول من أسلم من أُمراء المغول ، و كان زعيمًا للقبيلة الذهبية في روسيا بين سنتي 1256م و 1267م[2] كما يؤكد لنا ذلك القلقشندي ، عند ذكـره لملـوك مغـول القفجاقحيث قال :" أول من أسلم من ملوك هذه المملكة من بني جنكيز خان بركة بن جوجي بن جنكيز خان " .

الرواية الرابعة:

يجزم العمري أن بركة أسلم زمن سلطنة أخيه باتو ، حيث ذكر أن بركة كانت بعثته من طرف أخيه باتو مع باقي الأمراء و القواد المغول ، لإجلاس "مانكو" على كرسي الخانية سنة 648هـ و يبدو أنه بعد إتمام عملية الإجلاس ، و في طريق العودة من قراقورم إلى سراي مر بركة بمدينة بخارى [3]، و اجتمع بالشيخ سيف الدين الباخرزي ، من أصحاب شيخ الطريقة الكبراوية و هو نجم الدين الكبرى ، و أعجب بكلامه عن الإسلام ، فأسلم على يده[4] .

---

[1] القلقشندي ، المصدر السابق ، ص 474 .

[2] توماس أرنولد ، **الدعوة إلى الإسلام** ، تر:حسين إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1972م ، ص ص258-259.

[3] بخارى : من أعظم مدن ما وراء النهر ، فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي سنة 87هـ ، من أعظم مدن الدولة الخوارزمية ، ينسب إليها الإمام البخاري ، **ياقوت الحموي** ، معجم البلدان صادر بيروت ، ج1 ، ص353 .

[4] الرمزي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص ص 404 - 405 .

في رواية أخرى ، أن بركة خان أسلم على يد تاجرين قادمين من بخارى ، التقى بهما فسألهما عن عقائد الإسلام ، فشرحا له ، و اعتنق الإسلام ، و هذا يدل على أن بركة خان كان على علم و لو قليلاً بالإسلام .

قد أكد ويليام روبرك " سفير الملك "لويس التاسع" [1]، الذي مر ببلاد القفجاق ، أثناء عودته من العاصمة المغولية قوراقورم سنة 1253 " أن أوردا[2] بركة ، يقع بين الدربند و نهر الفولغا و تلك المنطقة كانت طريق عبور القوافل التجارية الإسلامية القادمة من إيران و آسيا الصغرى"[3]

يرى مُحَمَّد علي البار نقلاً عن رواية "الجوز جاني" أن إسلام بركة ، سببه أن أباه جوجيالذي كان متزوجا من مسلمة ، و هي الأميرة "رسالة" [4]ابنة السلطان " علاء الدين خوارزم شاه " ، التي وقعت في الأسر لدى المغول ، أثناء غزوات جوجي، فاتخذها زوجة له ، فكان لها تأثير في أبناء جوجي ، فعهدت تربية بركة منذ صغره إلى أحد العلماء المسلمين في "خوقند"[5] و كان باتو متسامحا مع المسلمين .

خلاصة القول أن بركة خان كان مسلما منذ الطفولة ، و قبل توليه العرش ، و عند بلوغه سن التعليم حفظ القرآن الكريم على يد هذا العالم الفقيه، و أيام حكم أخيه "باتو" للقبيلة الذهبية ، فقد أكد "ويليام روبك" الذي مر بمعسكر بركة ، أثناء عودته من العاصمة قوراقورم" أن لحم الخنزير لم يؤكل في معسكره ".

---

[1] لويس التاسع : **ملك فرنسا 1226– 1270م قائد الحملة الصليبية التاسعة على مصر** ، أنظر : باركر أرنست ، **الحروب الصليبية** ، تر : الباز العريني ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص120

[2] الأوردا : لفظ مغولي أو تركي ، معناه المعسكر ، أي المكان الذي يعسكر فيه السلطان . أنظر : الخالدي إسماعيل عبد العزيز ،**العالم الإسلامي و الغزو المغولي**، مكتبة الفلاح ، الكويت ، 1984،ص6 .

[3] Rubrukwilliem : **Voyage de Guillaum de Rubriquis** ,libairie , de la grave , paris , 1888 P111.

[4] الخاتون "رسالة" : هي زوجة عثمان خان آخر حكام دولة القُراخانيين ، التي قضى عليها المغول ثم تزوجها "جوجي خان" بعد وقوعها في الأسر سنة 1220م ، يَلمازأزطونا ، **المرجع السابق** ، ص176.

[5] مُحَمَّد علي البار ، **المسلمون في الاتحاد السوفياتي عبر التاريخ** ، دار الشروق ، جدة ، 1403هـ/1983م ، ج1،ص300.

منذ إسلامه نفر من الديانة الوثنية التي كان عليها آباءه ، و أصبح يميل إلى كل ما يمد للإسلام بصلة ، و من ذلك ارتباطه بعلاقات طيبة مع الخلافة العباسية ، ذلك أن الشيخ "الباخرزي" أشار عليه بمراسلة الخليفة العباسي ،"المستعصم بالله" في بغداد[1]، و أخذ بركة بنصيحة الشيخ و تبادل معه الرسائل و الهدايا

أولا – 1/اعتلاؤه العرش

توفى باتو خان سنة 653هـ [2]، و قد خلف أولادا هم : "سَرْتق"و "طغان" ، و كان الأول أقرب لخلافة أبيه ، بدليل أنه وُكِّل للنظر في أمور المملكة ، نيابة عن أبيه الذي أحال له تدبير أمورها[3].

كان باتو قد أرسل ابنه سَرْتق في عامفي عام 653هـ/1255م ، إلى قوراقورم لحضور القوريلتاي عند "الخان مانكو" ، فعلم بوفاة أخيه و هو في الطريق فتابع سيره إلى العاصمة المغولية فاجتمع بالخان الأعظم ، و عينه خلفا لأبيه ، إلا أنه لم يوفق في الجلوس على عرش أبيه فقد توفي أثناء عودته ، أُختلف في مدة حكمهو سبب وفاته ، و بعد وفاة "سَرْتق" أصبح "بركة" هو الوريث الشرعي وفقا للقانون المغولي ، الذي جاء فيه أن التقاليد لا تسمح للأبناء بوراثة أبائهم في السلطة إلا بعد وفاة كافة الأشقاء . فعَين "مانكو" "بركة"خانًا على مغول القبيلة الذهبية فور وفاة "سَرْتق" فأقام الاحتفالات ، و أرسل الهدايا إلى الخان الأعظم .

تحولت القبيلة الذهبية تدريجيا إلى الإسلام بتعيين بركة خانًا عليها سنة 654هـ/1256مو بروزها فيما بعد كدولة إسلامية .

---

[1] شمس الدين مُحَمَّد الذهبي ، **سير أعلام النبلاء** ، **تح:بشار عواد معروف** ، و محي هلال السرحان ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1985 ، ج23 ، ص367 .

[2] – باتوخان (1205 – 1255) مؤسسالقبيلةالذهبيةوحفيدجنكيزخان،وأبوههوجوجيخان.

[3] الرمزي ، **المصدر السابق** ، ج1 ، ص403 .

المبحث الثاني : سياسة و أعمال بركة خان

أ. سياسته :

اعتمدت سياسة بركة خان على ربط أواصر الصداقة مع المسلمين ، سواءً كانوا حكامًا أو محكومين في مملكته أو مع القوى المجاورة ، و على رأسهم المماليك و الخلافة في مصركما أنه عادى ابن عمه هولاكو ، إيلخان إيران الذي كاد أن يقضي على الإسلام ، بين قومه من المغول ، والشعوب الخاضعة لسلطانه ، فأسلمت زوجته "ججك خاتون" و اتخذت لها مسجدا متنقلاً من الخيم ، تنصبه حيث نزلت لتؤدي الصلاة ، في وقتها ، كما اعتنق عساكره الإسلام ، و كان الفارس يحمل معه سجادة للصلاة ، و امتنعوا عن تعاطي المسكرات[1].

عقد السلطان بركة خان حلفًا مع سلطان المماليك "الظاهر بيبرس" و كانت بداية هذا الاتفاق أن أصدر أمرًا إلى جنوده المقاتلة في صفوف جيش هولاكو ، بأن تتخلى عن مؤازرة الإيلخان ، و أن تتوجه إلى سلطان مصر، فقد كانت إيلخانية إيران و على رأسها هولاكو العدو المشترك بين مماليك مصر و خان القبيلة الذهبية ، مما دفع بركة لاتخاذ هذه الخطوة.

ب. أعماله :

لم يكن دخول 'بركة خان' الإسلام كدخول آحاد الناس بل دخل الإسلام بطلا ملكا سلطانا لقبيلة مغولية ،والمغول وقتها هم الكابوس المفزع للبشرية جمعاء و للمسلمين خاصة، لذلك جاءت أعمال هذا البطل العظيم على نفس المستوى الفائق منا المسؤولية والقيادة، وتحو لهذا السلطان الوثني إلى جندي من أخلص جنود الإسلام شديد الحب و التفاني في نصرة الدين و أهله، حيث ضرب أروع الأمثلة في الولاء و البراء وهذه طائفة من أهم أعمال 'بركة خان' في نصرة الإسلام.

قام ببناء عاصمة إسلامية هي "سراي الجديدة" التي سميت باسم "سراي بركة" و كانت مجاورة لسراي القديمة ، التي بناها أخوه باتو ، و ربما كانت المدينتان مدينة واحدة ، بدأباتو في بنائها و أكملها بركة بالبناء.

---

[1] سهيل طقوش ، **المرجع السابق** ، ص ص 31 – 32 .

هذا دليل على اهتمامه بالجانب العمراني للمملكة ، و جعله على الطابع الإسلاميفأنشأ المساجد و المدارس ، لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ، و قد ذكر ابن خلدون أن بركة خان بنبـ"تبريز"[1]جامعا و دارًا لنسج الثياب و الطرز [2]، كما قام ببناء "المدرسة العالية"ببخارى ، و هي تتكون من ثلاث طوابق ، جعل عليها أوقافًا كثيرة ، و هذه الأوقاف كانت تحت تصرف الشيخ "سيف الدينالباخرزي" ، و ذكر المؤرخ الرمزي الذي زارها سنة 1293م أنها من بناء بركة خان بينما أرجع المعاصر التركي "مُحَمَّد علي البار" ، أن بانيها هي أرملة "تولوي بن جنكيز خان" رغم كونها مسيحية ، أما الرحالة "ابن بطوطة" ، فزار زاوية و قبر الشيخ الباخرزي في مدينة فتح آبادو ذكر أن بها أوقافًا ضخمة يأكل منها الوارد و الصادر[3].

المبحث الثالث : عوامل انتشار الإسلام بين مغول القفجاق.

– 1– دور خواتين القبيلة الذهبية

أ. عهد السلطان "ثُدان منكو"679 – 686هـ/1280–1287م) :

هو ثودان بن طغانبن باتو بن جوجي بن جنكيز خان ، جلس هذا الخان على كرسي الملك سنة 681هـ[4] ، حسب ما ذكره الدوادار ، لكن سنة 679هـ هي السنة التي تولى فيها السلطةكان هذا الخان مسلما و مخلصا للإسلام ، فكان له دور في نشر الإسلام ، و بعد توليه العرش مباشرة ، أرسل سفارة إلى السلطان المملوكي "قلاوون" سنة 682هـ ، تضم اثنين من فقهاء القفجاقهما "مجد الدين

[1]تبريز : أشهر مدن أذربجان ، و هي مدينة ذات أسوار محكمة و في وسطها أنهار ، كانت من نصيب جوجي ثم ضمها هولاكو إلى ممتلكاته و اتخذها عاصمة له ، أنظر : ياقوت الحموي ، **المصدر السابق** ، ج2 ، ص13 .

[2]ابن خلدون ، **العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أخبار العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** ، دار الفكر ، بيروت ، 2000 ، ج5 ، ص 606.

[3]ابن بطوطة ، **تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار** ، ج2 ، دار الشروق العربي ،بيروت 291.

[4]بيبرس المنصور الدواداري، **زبدة الفكر في تاريخ الهجرة** ، تح : دونالدسريتشاردز ، الشركة المتحدة للتوزيع ، بيروت ، 1998 ،، ص227 .

آطا" و "نور الدين علي" ، يخبره بإسلامه و طلب من السلطان أن يسميه اسمًا إسلاميًا ، و يعطيه عَلمًا سلطانيًا يقاتل به أعداء الله[1] فأجابالسلطان طلبه .

بدأ "تدان منكو" جهاده ضد الكفار ، بإرساله حملات عسكرية لغزو أوربا ،منها غزوالمجر وبولندا ، فامتدت دولته إلى سهول أوكرانيا و سهول هنغاريا ، و ممالك البلقان.

لم يستمر في الحكم طويلا ، فضل التخلي عن السلطة سنة 686هـ/1287م و الإلمام بالعبادة و العلماء و التفرغ لعبادة الله[2]؛و كانت مدة تملكه حوالي خمس سنوات .

ب.عهد السلطان طُقْطَقَاي (690 – 712هـ/1291 – 1313م):

هو طُقْطَقَاي بن منكوتيمر بن طغان بن باتو بن جوجي ين جنكيز خان ، تولى عرش القبيلة الذهبية سنة 690هـ/1291م ،كان على دين التتار في عبادة الأصنامو الكواكب [3]و بالرغم من كفره إلا أنه كان يكرم المسلمين أكثر من جميع الطوائف الدينية الأخرى ، و عرف عهده باستمرار انتشار الإسلام في القبيلة الذهبية ،كما أن معظم جيشه مسلما.

فيما ذهب المؤرخ الرمزي إلى أنه كان مسلمًا ، و لكنه أمر مستبعد ، و كان لهذا الخان ولد يحب سماع القرآن الكريم .

ت. عهد السلطان مُحَمَّد أوزبك (712 – 742هـ/1313 – 1340):

هو غِياث الدين مُحَمَّد أوزبك بن طُغْرُلجا بن منكو تيمر بن طغان بن باتو بن جنكيز خانتولى حكم القبيلة الذهبية بعد وفاة الخان "طُقْطَقَاي" ، أسلم قبل توليه الحكم على يد أربعة فقهاء من الفرس ،كان مسلما متحمسا لدينه ، شديد الحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية و أُعتبر عهده العصر الذهبي للإسلام في مملكته ، وصفه الرحالة المغربي ابن بطوطة بأنه " السلطان العظيم ، شديد القوة ،كبير الشأن

[1] نفس المصدر ، ص234 .

[2] الرمزي ، **المصدر السابق** ، ج1 ، ص474 .

[3] ابن كثير،**البداية و النهاية** ،تح:عبد الله بن محسن التركي ، هجر للطباعة و النشر و التوزيع ،1997،ج17، ص126 .

، رفيع المكانة ، القاهر لأعدائه" [1] ، حرس السلطان أوزبك على أداء فرائض الإسلام ، فلم تكن تفوته صلاة الجماعة في المسجد ، و مواظبا على صلاة الجمعة .

اهتم بالجانب العمراني لمملكته ، فأكثر من بناء المساجد [2]، و مدارس العلم و الزواياحيث تميزت مملكته بالانتشار الواسع للمساجد على الطراز العربي ، و الطراز المغولي التركي و أنشأ المدارس حيث تدرس فيها كل أصناف العلوم الدينية ، كما نجد انتشارًا واسعًا للزوايا في المدن الكبرى ، كالقرم و سراي و بخارى؛اتخذ السلطان مُحَمَّد أوزبك المذهب الحنفيكمذهب رسمي في مملكته .

وضع السلطان مُحَمَّد أوزبك نظامًا خاصًا في القضاء ، يشبه النظام القضائي الذي وضعهالسلطان الظاهر بيبرس في مصر ، حيث جعل لكل مذهب قاضٍ . كانت مملكته مليئة بالعلماء و المشايخ و القضاة ، و الفقهاء ، و يحضون بمنزلة رفيعة عنده .

لقد وصلت مملكة القبيلة الذهبية في عهد "مُحَمَّد أوزبك" إلى قمة مجدها ، من الحضارةو التمدن ، و تمتعها بالأمن و الاستقرار ، فقد عمل على بسط نفوذه بين رعيته و أعدائه حيث عمل على تطبيق نصوص الشريعة الإسلامية ، و بلغت مملكة القفجاق في عهده من العظمة و الازدهار، حتى أصبحت تعرف بمملكة السلطان أوزبك ، و العديد من القبائل في بلاد القوقاز تنتسب إلى اسمه ، و هم الذين عرفوا فيما بعد بشعب "الأوزبك" ، و الذينيشكلون اليوم جمهورية أوزبكستان[3]

[1] ابن بطوطة ، **المصدر السابق** ، ج2 ، ص263 .

[2] أنظر مسجد السلطان مُحَمَّد أوزبك في الصورة رقم :02 ، ص76.

[3] الرمزي ، **المصدر السابق** ، ج1 ، ص504 .

2 – دور التجارة و التجار المسلمين في إسلام مغول القفجاق:

ساعد عامل التجارة على هذا التحول الذي مس مغول القفجاق ، من الوثنية إلى الإسلام حيث أن التجارة كانت تسير جنبًا إلى جنب مع الدعوة الإسلامية ، فنرى أن منذ عهد جنكيز خان ، رأى المغول أن النشاط التجاري هو العمود الفقري في الحياة الاقتصادية فشجعوا الحركة التجارية في جميع أطراف مملكتهم ، و بذلوا في ذلك جهودا كبيرة ، تمثلت في فتح العديد من الطرق التجارية و وضع حاميات لحراستها ، و حماية القوافل التجارية .

اهتم خانات القبيلة الذهبية بالنشاط التجاري ، و عملوا على تطويره و تفعيله على أرض مملكتهم .

كانت العاصمة "سراي" تقع على الطريق الذي يمر به المسلمون الوافدون من إيران وآسياالصغرى و خوارزم ، و آسيا الوسطى ، مما جعل خانية مغول القفجاق ، تمتلئ بالتجارة من كل حدب و صوب و من مختلف بلاد الإسلام ، خاصة بلاد الشام و إيران ، العراق و مصرحيث أن هؤلاء التجار ، كما يشير ابن بطوطة كان لهم أحياء خاصة بهم ، يسكنونها محميةو محروسة[1].

فكانوا ينقلون تجارتهم و ينشرونها ، و ينشرون الإسلام نتيجة تعاملاتهم و تواصلهم مع باقي أطياف الشعوب في بلاد مملكة القفجاق .

كان هناك احتكاك بين التجار المسلمين و سلاطين القبيلة الذهبية و مثل ذلك: رواية "بركة خان" مع التاجرين المسلمين[2] ، حيث سألهما عن الإسلام ، و زَوَّداه بمعلومات عن الإسلام فكانوا إلى جانب سفرهم للتجارة ، سفراء في الدعوة إلى الدين الإسلامي بأخلاقهمو معاملاتهم ، التي كانت تعكس الصورة المشرفة للإسلام .

---

[1] ابن بطوطة ، **المصدر السابق** ، ج2 ، ص230.

[2] – مُحَمَّدسهيل طقوش،**تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند**،دارالنفائس،ط: الأولى، 1428هـ-2007م ، ص125 .

الفصل الرابع :

العلاقات الخارجية و المظاهر الحضارية لمغول القبيلة الذهبية

المبحث الأول : المظاهر الحضارية الإسلامية للقبيلة الذهبية

المبحث الثاني :علاقات القبيلة الذهبية مع المغول

المبحث الأول : المظاهر الحضارية الإسلامية للقبيلة الذهبية

– 1– المراكز الثقافية و المساجد :

يعتبر الخان المغولي بركة الذي كان قائدًا للقبيلة الذهبية (القبجاق)عام 1256-1267م، خان فريدًا من نوعه في تاريخ أسرة جنكيز خان حيث أنشأ مغول القفجاق ، الزوايا و المساجد و المدارس سواء في العاصمة سراي ، أو في غيرها من المدن و القرى ، فالسلطان بركة خان أَكْثَر من بناء المساجد و المدارس ، حتى يكبر النشأ الجديد على القرآن الكريم .

في عهد مُحَمَّد أوزبك هو الآخر ، غطت الزوايا كل مدينة و قرية ، تتبع كل واحدة منها أحد المشايخ أو الصالحين أو الأمراء[1].

ذكر ابن بطوطة زاوية الشيخ "زادة الخراساني" ، في مدينة القرم ،و بالقرب منها زاوية الأمير "تاكتمور"[2] ، و زاوية في مدينة أزاق لشيخ من أهلها يسمى رجب النهر [3] ، و في مدينة الماجرتوجد زاوية الشيخ العابد مُحَمَّد البطائحي، و بها حوالي 70 من فقراء الفرس و العربو الترك و الروم[4] .

في مدينة سراي العاصمة ، كانت هناك زوايا كثيرة أهمها : زاوية الشيخ نهمان الدين الخوارزمي و زاوية الصالح الحاج نظام الدين[5] .

---

[1] ابن بطوطة ، **المصدر السابق** ، ج1 ، ص211.

[2] نفس المصدر ، ص ص 206 وما بعدها .

[3] نفس المصدر ، ص 209.

[4] نفس المصدر ، ص 201.

[5] نفس المصدر ، ص 203.

في مدينة سراجوق ، هناك زاوية لرجل صالح من الترك يدعى "آطا" ، و في مدينة خوارزمزاوية الأمير "قطلوتيمر" نائب السلطان أوزبك" .

أما المساجد فنالت حصة كبيرة من الاهتمام ، لدى خانات بلاد الشمال المغوليةو خاصة في العاصمة سراي ، حيث ذكر ابن بطوطة أن بها 13 مسجدًا لإقامة الجمعة، أحدها للشافعية و أما المساجد لغير ذلك فكثيرة جدا [1]، فذكر ابن بطوطة عند وصوله إلى مدينة "الكفا" ، حيث قال:"ونزلنا منها بمسجد للمسلمين"[2] ، و ذكره لمدينة القرم ، حيث قال:"ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائلي قاضي الحنفية ، و لقيت بها قاضي الشافعية و خطيبها أبا بكر ، و هو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمّره الملك الناصر رحمه الله"[3].

كانت المساجد منتشرة بشكل كبير ، حيث تنافس خانات و أمراء المغول و زوجاتهم على بنائها ، و مثال ذلك زوجة الأمير "قطلوتيمر" حاكم خوارزم ، حيث بنته على نفقتها و عمّرته في مدينة خواوزم[4] . و قلدنها الكثير من الخواتين ، في بناء المساجد و الزوايا ، حبا في عمل الخير من جهة ، و رغبة في نشر الثقافة الإسلامية من جهة أخرى ، و كانت نتيجة هذا التعمير للمراكز الإسلامية ، ازدهار كبير للثقافة الإسلامية ، حيث انتشرت بين المغول بكافة أنواعها ، فانتشرت المذاهب الفقهية المختلفة ، و الطرق الصوفية ، و التي كانت لها مدارس رائجةو كثيرة ، حيث لكل مذهب مدرسه و مسجده الخاص ، يختص في تدريس تعاليم مذهبه.

[1] نفس المصدر ، ج1 ، ص230 ، عبد الحليم رجب ، المرجع السابق ، ص156.
[2] ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج1 ، ص206.
[3] ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص 207.
[4] نفس المصدر ، ص 232.

– 2– الحياة العلمية :

إنَّما ساهم بازدهار الحياة العلميَّة و الثقافيَّة في بلاد القبيلة الذهبيَّة دخول مملكة مغول القفجاق ضمن دائرة العالم الإسلامي ، وتحولت إلى أمة مسلمة تملك المعالم الحضارية الإسلامية و المظاهر الخاصة بها ، كأمة قائمة بذاتها ، و ذلك بفضل بروز "بركة خان" كمسلم على الساحة المغولية ، إذ أثر هذا التحول الديني إلى الإسلام تأثيرًا بالغًا و تطورًا حضاريًا في كل المجالات ، مما جعل القبيلة الذهبية تتميز عن غيرها من الممالك المغوليةفتوسعت أراضيها عبر آسيا بعد انتشار الإسلام بها منذ عهد بركة خان ، حتى عهد مُحَمَّد أوزبك ، أي ما يقارب 88 عامًا من (654 – 742هـ/1256 – 1342م) ، كانت هذه المدة كافية بأن تزين هذه الخانية بحلة حضارية إسلامية .

فتجد أن بركة خان اهتم بالحياة العلمية و الثقافية ، فاتخذ المساجد و المدارس في جميع أنحاء مملكته ، و قرب العلماء و الفقهاء[1].

ذكر المقريزي أن بركة خان بعد توليه الحكم مباشرة ، أبرز شعائر الإسلام في مملكته و اتخذ المدارس و أكرم الفقهاء[2] .

زاد اهتمامه بالعلم ، بإرسال أولاده إلى القاهرة ، من أجل الدراسة ، فكانت نتيجة ذلك أن تشبعوا باللغة العربية و أتقنوها ، لدرجة أن أحد هؤلاء الأبناء ، كان له ديوان شعر باللغة العربية و كتبًا في علم تفسير القرآن الكريم .

من دلائل جهود هذا الخان لتطوير الحياة العلمية ، ما ذكره ابن عرب شاه حيث قال:"و لما تشرف بركة خان بحلة الإسلام و رفع في أطراف الدشت للدين الحنفي الأعلام ، استدعى العلماء من الأطراف ،

[1] الرمزي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص407.

[2] المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تح:مُحَمَّد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ص486.

و المشايخ من الآفاق و الأكناف ، ليوقفوا الناس على معالم دينهم، و يبصرونهم طرائق توحيدهم و يقينهم"[1]؛ قام بركة بجمع العلماء و الأدباء ببلاطه ، و أجزل عليهم بالعطايا و الهبات[2] .

أصبحت الطبقة الاجتماعية الراقية في بلاط الخان ، تضم أشهر العلماء من المفسرينو الفقهاء ، و علماء الكلام ، و رجال الحديث ، و يملك الكثير من كتب الدين ، و كانت معظم مجالسه مناظرات دينية[3].

و أصبحت سراي حاضرة للعلم و العلماء ، و فاقت في ذلك مصر ، حسب وصف عرب شاه: "فصارت سراي مجمّع العلم و معدن السادات ، و اجتمع فيها من العلماء و الأدباء في مدة قليلة ، ما لم يجتمع في سواها و لا في جامع مصر و لا في قراها"[4] .

– 3– المدن و الحواضر :

برزت في مملكة الشمال المغولية ببلاد القفجاق ، عدة مدن ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية و كانت هذه المدن من إنشاء سلاطين المغول ، تحولت إلى مراكز حضارية إسلامية ، و أهم تلك الحواضر الإسلامية العاصمة المغولية "سراي" التي كانت منارة في بلاد القبيلة الذهبية .

أ –العاصمة "سراي" :

هي عاصمة مملكة القبيلة الذهبية ،كانت من بناء باتو خان الذي استقر بها ، بعد إتمام غزواته ، و أتم بناءها "بركة خان" بناءًا إسلاميًا ، و عمَّرها ، و هي على شط نهر إتل و هي أرض بغير سور[5].

[1] ابن عرب شاه ، عجائب المقدور في أخبار تيمور ، مطبعة أردوكائيد في بندر ، ص36.
[2] نفس المصدر ، ص39.
[3] أرنولد ، المرجع السابق ، ص259.
[4] ابن عرب شاه ، المصدر السابق ، ص38.
[5] الرمزي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص412.

ذكر أبو الفدا موقع سراي فقال:"وهي في مستوى من الأرض و هي غربي بحر الخزرو شماليه و يجري نهر إلاتل عندها من الشمال و الغرب إلى الشرق و الجنوب ، و هي على شط الإتل من الجانب الشمالي الشرقي"[1].

يصفها الرحالة ابن بطوطة الذي زارها :"و مدينة السرا من أحسن المدن متناهية الكبر في بسيط من الأرض ، تغص بأهلها كثرة ، حسنة الأسواق متسعة الشوارع"، و هي كبيرة و عظيمة ، ديارها متصلة ، ليس فيها بساتين ، و لا خراب ، أما عن سكانها فهي متعددة الطوائفمنهم المغول و هم السلاطين ، و أهل البلاد ، و بعضهم مسلمون ، و منهم الآص و هم مسلمون ، و منهم القفجق و الجركس و الروس ، و الروم ، و هم نصارى[2].

يقول ابن عرب شاه عنها ، الذي عاش فيها مدة من الزمن بقوله:"و تحت الدشتسراي و هي مدينة إسلامية البنيان ، بديعة الأركان"، و يصف كبر حجمها و ازدحام أسواقها في سرد قصة كالتالي:"يحكى أن رجلاً من أعيانها ، هرب له رقيق و سكن في مكان منحى عن الطريق، و فتح له حانوتًا يتسبب فيه و يحصل له قوته ، و استمر ذلك المهين نحوًا من عشر سنين لم يصادفه فيها مولاه و لا اجتمع به و لا رآه ، و ذلك لعظم و كثرة أُممها"[3]. و هذا يعني شساعة أراضيها ، و كثرة سكانها ، و نشاط أسواقها و تجارتها

العاصمة سراي وحدها مقسمة حسب كل طائفة ، فكل طائفة تسكن محلا على حدافمثلاً "نجد أهل العراق لديهم أسواقهم و تجارتهم على حدا ، و كذلك أهل مصر و الشامو غيرها من الأمم ، و هذه المحلات عليها سورًا احتياطيًا على أموال التجار. ويوجد بسراي قصر السلطان.

[1]أبو الفدا ، المصدر السابق ، ص217.

[2]ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج1 ، ص230.

[3]ابن عرب شاه ، المصدر السابق ، ص ص35- 36.

يذكر الرمزي نقلاً عن العمري:"و هي مدينة كبيرة ذات أسواق و حمامات و وجوه بر مقصودة ، في وسطها بركةً ماؤها من نهر إتل"[1].

من المدن التي اعتبرت منارة للعلم و العلماء و الحضارة الإسلامية "مدينة القرم" ، و هي إقليم يشمل نحوًا من أربعين بلدًا ، و كان سكانه من المغول المسلمين ، أصحاب ثقافة و علم فقد و جدت الكثير من المدارس و المراكز الثقافية في مختلف مدن هذا الإقليم [2] ، و من أهم مدن هذا الإقليم مدينة "صلغات" و "باخشي سراي " (سراي الصغرى) و مدينة "الأُكك"و هي على جانب نهر إلاتل [3] ، و من مدنه أيضا مدينة "صوداق" أو "سوداق" و هي بلدة على شط بحر القرم أهلها مسلمون[4].

نذكر كذلك من المدن الزاخرة بالثقافة الإسلامية و الحياة العلمية و الدينية ، ذات الطابع الإسلامي مدينة"أزاق" ، واقعة على شط بحر الأزق المعروفة ببحرها "مانيطش"[5]؛ هي مدينة تجارية من الطراز الأول ، قصدها تجار مسلمون و نصارى ، فازدادت ثروتها الثقافية من زواياوغيرهانتيجة اجتماع الطلبة و الفقهاء و القضاة ، و بها زاوية رجب النهر مَلكي .

هناك مدينة الحاج "طرخان" ، التي ينزل بها السلاطين و الخواتين ، و لذلك طغت عليها مظاهر الحياة الإسلامية ، و هي عظيمة الأسواق ، مبنية على نهر إلاتل[6].

هناك مدينة"بلغار" و هي أقدم من الناحية التاريخية الإسلامية ، و هي أهم مدينة بعد "سراي"، كانت تمد القبيلة الذهبية بالعلماء.

---

[1] الرمزي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص412.
[2] عبد الحليم رجب ، المرجع السابق ، ص160.
[3] القلقشندي ، المصدر السابق ، ص460.
[4] أبو الفدا ،المصدر السابق ، ص215.
[5] نفسالمصدر ، ص217.
[6] ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج1 ، ص220.

المبحث الثاني :علاقات القبيلة الذهبية

- **العلاقات مع المسلمين (دولة المماليك) :**

دخل ' بركةخان' فيحلفمعالمماليكالذينبهرواالعالمعندماانتصرواعلىالتتارفيموقعةعينجالوتسنة 658 هجرية، ، فقد جمعت بينهما علاقات دبلوماسية ، فكثرت بينهما السفارات و المراسلات ، و حتى التحالفات العسكرية ، و نتج عن كل هذا علاقات مصاهرة ، وعلاقات تجارية .

– 1– العلاقات السياسية :

أ –العلاقات الدبلوماسية :

بدأت العلاقات الدبلوماسية بين مملكة القبيلة الذهبية ، و المماليك في عهد السلطان "الظاهر بيبرس"[1]، حيث حينما علما هذا الأخير بإسلام بركة خان كتب إليه يعرض عليه التحالف ضد هولاكو و كان ذلك سنة 659هـ/1261م ، لكن أغلب المصادر العربية كابن الأثير ، رجحت سنة 661هـ/1263م كتاريخ لأول سفارة بين الطرفين ، و كان بيبرس قد سمع بالعداوة بين "هولاكو" و "بركة خان" ، فأراد استغلالها و الدخول في حلف مع "بركة خان"، للقضاء على أطماع "هولاكو" في بلاد الشام .

سنة 661هـ/1263م ، كانت السفارة الثانية التي أرسلها "الظاهر بيبرس" إلى "بركة خان" مكونة من اثنين من الفقهاء "سيف الدين كَشَرْبَكْ" و "مجد الدين الرُذْرَاوِرِي" و رافقهما اثنين من التتار ،الذين كانوا قد وفدوا مستأمنين إلى القاهرة ، و كان مضمون الرسالة التي حملت ، أن يقوم الجهاد ضد "هولاكو"

[1] السلطان الظاهر بيبرس: هو ركن الدين أبو لفتوح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي ، سلطان مصر و الشام و الحجاز (658 – 676هـ/1260 – 1277م) ، ولد بصحراء القفجاق ، بيع بدمشق "للعماد الصائغ" ، ثم اشتراه الأمير "علاء الدين أيدكن الصالحي البندقداري" ، فنسب إليه ، ثم اشتراه الملك " الصالح الأيوبي" و أعتقه و جعله من مماليكه ، أنظر: عز الدين مُحَمَّد بن علي بن شداد ، **تاريخ الملك الظاهر** ، دار النشر ، فرائز شتايزبفيسبادن ، 1983 ، ص31 و ما بعدها .

،كما أعلمه بوصول الوافدين إليه ، و أنهم قد حصلوا على المكانة العالية في مصر، و أخبر السلطان الخان في سراي بإعادته إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، و مبايعته للخليفة "الحاكم بأمر الله"[1].

السافرة الأولى من "بركة خان" إلى القاهرة ،كانت تتكون من الأمير"جلال الدين بن القاضي" و الشيخ " نور الدين علي" ، و عند وصولهم ، خرج الملك الظاهر بنفسه لاستقبالهم و كان معه الفقيه "مجد الدين" ، و قد أحسن السلطان استقبالهم ، و مما جاء في الرسالة ، أن "بركة خان" أخبره إسلامه ، و إسلام عشيرته ، و شرح له أسباب العداوة بينه و بن "هولاكو" ، معتبرًا الحرب ضده جهادًا في سبيل الإسلام ، و من نص تلك الرسالة "...فليعلم السلطان أني حاربت هولاكو الذي هو من لحمي و دمي ، لإعلاء كلمة الله و تعصبًا لدين الإسلام ، لأنه باغي و الباغي كافر بالله و رسوله..."[2] .

كما أثنى في رسالته على السلطان "الظاهر بيبرس" ، لأنه أعاد إحياء الخلافة العباسية ، و نقل و نقل مقرها إلى مصر ، حيث قال :"...لأنه أقام إمامًا من آل العباس في خلافة المسلمين و هو الحاكم بأمر الله ، فشكرت الله تعالى..."[3] ، و قد وردت هذه الرسالة بنصوص مختلفة في مصادر إسلامية أخرى ، و إن اختلف المضمون فإن محتواها يدل على أن "بركة خان" ، هو أيضًا كان راغبًا في التحالف مع المماليك ، للاستعانة بهم في حربهم على "هولاكو" ، و بالمقابل فقد استفاد المماليك كثيرًا من هذا التحالف ، فبفضل الحروب التي كانت بين "بركة خان" و "هولاكو" جعلت من هذا الأخير يصرف النظر و لو لفترة عن بلاد الشام ، و بذلك تفرغ المماليك للتصدي للحملات الصليبية على مصر ، و مواجهة أطماع الصليبيين في بلاد الشام .

---

[1] الخليفة الحاكم بأمر الله : هو أبو العباس أحمد بن الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله (661هـ/701م) ،كان مستخفيا عند العرب في نواحي بغداد ، ولما قدم مصر و أثبت نسبه ، بايعه الملك الظاهر ، جلال الدين السيوطس ، **تاريخ الخلفاء** ، تح: عبد الله المنشاوي ، مكتبة الايمان ، القاهرة ، 2003 ، ص 467.

[2] الدوادار بيبرس ، **المصدر السابق** ، ص82 .

[3] العيني ، **عقد الجمان في تاريخ الزمان** ، تح: محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1985م ، 153 *أنظر النص الكامل لرسالة "بركة خان" إلى "الظاهر بيبرس "؛ أنظر الملحق رقم:03 ، ص66 .

من مظاهر هذا التقارب ، كان "الظاهر بيبرس مع كل سفارة يبعث هدايا ثمينة ، كان من أبرزها ، مصحف بخط عثمان بن عفان ﷺ ، و سجادات ، وزرافة... [1] ، و كانت للسلطان "بركة خان" مكانة خاصة لدى الظاهر بيبرس ، حيث اعتبر من الشخصيات المهمة في العالم الإسلامي و تقديرًا له أمر الظاهر الخطباء بالدعوة له على منابر المساجد ، بمكة و المدينة المنورة ، و القدس ، و مصر.

استمر تبادل السفارات بين القاهرة و سراي ، فقد أوفد السلطان الظاهر بيبرس سنة 663هـ/1265م ، سفارة فيها "شجاع الدين بن الدَابة الحاجب" ، سفيرًا إلى بركة خان، و أخبره السلطان أنه اعتمر عنه ثلاث عمرات ، و أرسل له ماء زمزم[2] .

أما في بلاد القفجاق ، فوصلت السفارة الثانية التي بعثها الظاهر بيبرس ، يقودها الأمير "كَشَرْبَك" و قبل دخوله إلى بلاط الخان ، فرض عليهم تطبيق الطقوس المغولية عند استقبال السفراء ، حيث إذا دخل الرسل على الخان ، يكون دخولهم من جهة اليسار ، بعدها يقومون بتسليم الكتب التي يحملونها ، ثم يتجهون ناحية اليمين ، و يجلسون على ركبهم ، فيقوم قاضي القضاة بأخذ الكتاب و ترجمته ، و يسلم نسخة منه للخان[3] ، كما يمنع الرسل من أن يدخلوا معهم السيف و السكين [4] .

بعد وفاة بركة استمرت العلاقات السياسية بين القاهرة و سراي ، و تواصل إيفاد السفراء و قد ظل سلاطين المماليك في مصر حتى بعد وفاة بركة خان يكرمون أهل بيته و يرسلون لهم الهدايا ففي سنة 679هـ في عهد السلطان "المنصور قلاوون" ، أرسل سفارة إلى بلاد القفجاق تضمنت هدايا إلى بيت "بركة خان" و زوجته "ججك خاتون"[5] .

---

[1] بيبرس الدوادار ، **المصدر السابق** ، ص84.

[2] شهاب الدين أحمد النويري ، **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، تح: نجيب مصطفى فواز ، حكمت كشلي فواز ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2004م ، ص75.

[3] نفسالمصدر ، ص68.

[4] الرمزي ، **المصدر السابق** ، ج2 ، ص438.

[5] **نفس المصدر** ، ج1 ، ص467.

من جهة الخوانين الذين تولوا الحكم بعد "بركة خان" ، حتى غير المسلمين منهم ، كالخان "منكو تيمر" ، و "طقطقاي خان" ، حافظوا على علاقتهم الدبلوماسية مع العالم الإسلامي ، و تبادلو السفراء مع المماليك ، و استمروا في الاعتراف بالخليفة العباسي و السلطان المملوكي في القاهرة ، و الاستمرار في التحالف العسكري ضد مغول إيران و كان الاحترام والتقدير متبادلا بين خوانين المغول في سراي و سلاطين المماليك في مصر .

ب –علاقات المصاهرة :

كانت العلاقات السياسية و الدبلوماسية بين مغول القبيلة الذهبية و المماليك ، علاقة مودة أثمرت علاقات مصاهرة بين الطرفين ، و أول الزيجات بين المغول و المماليك ، كانت زواج السلطان الظاهر بيبرس من ابنة السلطان بركة خان ، و التي أنجب منها ابنه الأول الملك "السعيد ناصر الدين بركة خان" ، الذي تولى الحكم بعده[1] ، و كان الظاهر بيبرس أول من بادر بإقامة علاقات سياسية مع مغول القفجاق ، و توج هذه العلاقات بالزواج من امرأة مغولية ، ربما ظل قلبه مرتبطا بموطنه الأصلي بلاد القفجاق ، و استمرت مع "مُحَمَّد أوزبك" حيث رغب في مصاهرة المماليك ، و عرض على السلطان "الناصر بن قلاوون" ، الزواج من إحدى الأميرات المغوليات و هي من بيت جنكيز خان ، و قبل السلطان و وصلت العروس إلى القاهرة في موكب خاص فيه كبار رجال دولة المغول سنة 720هـ ، و استقبلها السلطان بنفسه و عقد عليها[2].

[1] بارتولد ، **المصدر السابق** ، ص214.

[2] الرمزي ، **المصدر السابق** ، ج 1 ، ص 513 ؛ مصطفى ثامر النعمان ، **الزواج السياسي في عصر المماليك البحرية** (648 _ 748هـ) ، ج1 ، مقال مجلة كلية التربية ، جامعة واسط ، العدد 2 ، سنة 2007 ، ص128 .

ثانيا– 2– العلاقات التجارية :

اعتمدت عملية شراء الرقيق التركي ، منذ عهد السلاطين الأيوبيين ، و هؤلاء الرقيق التركي من بلاد القفجاق ، فَكُوِّن منهم جيشًا سمي بالمماليك البحرية ، و علا شأنهم في مصر و تقلدوا المناصب ، حتى أمسكوا بزمام السلطة ، و آل حكم مصر إليهم ، فكان السلاطين الذين حكموا مصر في العهد المملوكي ، من جنس القفجاق ، كالسلطان "عز الدين أيبك" أصله من بلاد القفجاق ، و بيع للعماد الصائغ ، و السلطان " المنصور قلاوون" ، و هو أيضًا من جنس القفجاق ،فكان من الطبيعي أن يعتمد هؤلاء السلاطين على جلب الرقيق من بني جنسهم القفجاق ، "فمالت الجنسية إلى الجنسية" ، كما قال المؤرخ القلقشندي.

كانت عملية الرقيق من بلاد القبيلة الذهبية ، تتم عبر موانئ الإمبراطورية البيزنطية ، حيث يقوم التجار المتحكمون في تلك الموانئ بحمل الرقيق من موانئ البحر الأسود ، ثم عبر مضيق البوسفور و الدردنيل لتصل إلى موانئ مصر الواقعة على البحر المتوسط ، و أهمها ميناء الإسكندرية و دمياط [1] ، أيضا كان هناك توافد أعداد كبيرة من التتار و الأتراك إلى مصر ، التي شجعت تجارة الرقيق من تلك البلاد ، و ذلك لعدة عوامل ، فمنطقة القفجاق ذات مناخ قاسي ، و أرضها رعوية ، و سكانها بدو رحل ، و هو ما أثر على حياتهم الاجتماعية ، مما أدى إلى بعض الأسر لبيع أبنائها لتجار الرقيق[2] .

نجد الحروب القائمة بين مغول القفجاق و مغول إيران ، أدت إلى سبي أعداد كبيرة من الأطفال و النساء ، و هو ما أنعش تجارة الرقيق ، و أول دفعة للوافدين من المغول إلى مصر كانت في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، و هم الذين قدِموا مستأمنين بعد فرارهم من جيش هولاكو ، و قد بلغ عددهم 200 فارس بأسرهم[3] ، و ذلك أن هؤلاء كلهم من فرسان القبيلة الذهبية ، ضمن جيش هولاكو الذي احتل

---

[1] لبيب صبحي ، **سياسة مصر التجارية في عصر الأيوبيين و المماليك** ، مقال المجلة التاريخية المصرية المجلدان 28 و 29 ، مطبعة الجبلاوي ، 1981 – 1982م.

[2] القلقشندي ، المصدر السابق ، ج4 ، ص457.

[3] الدوادار بيبرس ، **المصدر السابق** ، ص85 ، (وقد ذكر عددهم ألف فارس) .

بغداد ، و لما نقم بركة على هولاكو مما فعله ببلاد المسلمين ، و ظهر العداء بينهما ، كتب إلى جنوده يأمرهم بالانسحاب و القدوم إليه ، و إن تعذر عليهم ذلك فعليهم التوجه إلى مصر ، و كان وصول هؤلاء إلى القاهرة سنة 660هـ/1261م ، و خرج السلطان الظاهر بيبرس لاستقبالهم ، و أحسن إليهم ، و منحهم إقطاعات ، و خيول ، و دخلوا في دين الإسلام ، و أمر ببناء مساكن لهم "باللوق" [1] ظاهر القاهرة ، و يبدو أن هذه المعاملة التي حضي بها هؤلاء الوافدين ، أغرت غيرهم من المغول ، ففي سنة 661هـ/1262م ، وفد أكثر من 1300 فارس .[2]

ساهمت العلاقات السياسية بين المماليك و القبيلة الذهبية ، في حصول المماليك على المزيد من الرقيق و الجواري ، الذين خدموا في قصور المماليك ، في سنة 704هـ/1304م ، وصل إلى مصر رسول من قبل "نوغاي" ابن أخ "بركة خان" و معه جواري عددهم 400 جارية ، و تم عرضهم على السلطان الناصر ، الذي أخذ منهم 20 ، و اشترى أُمَراءَهُ الباقي [3] ، و استمر تدفق الرقيق التركي من بلاد القفجاق ، خاصة و أن المماليك كانوا بحاجة إلى أعداد كبيرة منهم لمواجهة الخطر المغولي من جهة و الخطر الصليبي من جهة أخرى ، و لتضمن مصر الحصول على الرقيق تم توقيع معاهدة تجارية بين القبيلة الذهبية و مصر سنة 660هـ/1261م ، كانت بيزنطة طرفًا فيها ، و ما كانت تتم إلا بموافقة الإمبراطور البيزنطي نفسه ، و بفضل علاقات "الظاهر بيبرس" الجيدة مع الإمبراطور "ميخائيل الثامن" سمح للسفن التجارية المملوكية بالعبور عبر المنافذ البحرية البيزنطية (مضيق البوسفور ، و البحر الأسود) ، مقابل أ، ترسل بيزنطة بطريكًا أرثوذكسيا إلى الإسكندرية ، لرعاية شؤون المسحيين و من جهة يرسل السلطان بطريكًا ملكانيًا ، ليشرف على الطائفة الملكانية في القسطنطينية[4] .

---

[1] اللوق: كانت تعرف قديمًا بباق اللوق ، و أطلقت التسمية على الأراضي التي انحصر عنها نهر النيل ، و هي عبارة عن بساتين و مزروعات ، ثم بنيت في العصر المملوكي ، نوار صلاح الدين مُحَّد ، **المصدر السابق** ، ص31.

[2] العريني ، **المماليك** ، دار النهضة العربية ، بيروت ،دت ،دط، ص58.

[3] نفس المرجع ، ص46.

[4] العبادي أحمد مختار ، **قيام دولة المماليك الأولى في مصر و الشام** ، بيروت ، دار النهضة العربية ، 1986م ، ص217.

لم يعامل السلاطين المماليك هؤلاء الوافدين كالرقيق ، بل بقوا أحرارًا ، و حصلوا على رعاية خاصة ، و مسكن و ملبس و أكل خاص ، و رواتب جيدة ، كما ارتبط الكثير منهم مع المماليك بالمصاهرة[1] .

[1] العريني ، المرجع السابق ، ص58 .

خاتمة

قيل "الناس في كل زمان و مكان على دين ملوكهم" ، لكن هذا المثل لا ينطبق على وضع الدين في خانية القبيلة الذهبية ، فهي أول مملكة مغولية تعتنق الإسلام بفضل السلطان بركة خان الذي اعتنق الإسلام و نشره بين أهله ، فحاول أن يعمم الإسلام في مملكته ، إلا أنه بقيت كثير من أحكام الياسا المغولية منتشرة في المملكة ، إلى أن تولى السلطان "مُحَمَّد أوزبك" ، و عمل على تطبيق تعاليم الدين الإسلامي .

و على أساس تعاليم الدين الإسلامي بنت القبيلة الذهبية علاقاتها مع الممالك المعاصرة لها و كانت العلاقات المميزة هي تلك التي تربطها بمماليك مصر .

توصلت من بحثي هذا " العلاقات بين المماليك ومغول القبيلة الذهبية (دراسة سياسية حضارية) إلى مجموعة من النتائج هي :

1 -يرجع الفضل الكبير في نشر الإسلام بين المغول إلى القبيلة الذهبية و أهمهم "بركة خان".

2 -شمل الإسلام في القبيلة الذهبية جميع مظاهر الحياة السياسية و الاجتماعية و الحضارية .

3 -طبق مغول القبيلة الذهبية تعاليم الإسلام ، فكانوا حريصين على أداء الصلوات و صلاة الجماعة في المسجد ، و ألزموا الرعية و الجنود بالمحافظة عليها .

4 -استقلت القبيلة الذهبية عن الخانات العظام بعد تحولها إلى الإسلام ، عندما أعلن "بركة خان" نفسه تابعا للخليفة العباسي في القاهرة .

5 -اتخذ خوانين القبيلة الذهبية طريقة التسامح الديني مع الطوائف الأخرى ، حيث سمحوا للمسيحيين ببناء الكنائس و أداء شعائرهم .

6 -تفرقة أسرة جنكيز خان ، و انقسمت الإمبراطورية المغولية إلى ممالك مستقلة عن الخان الأعظم ، متناحرة فيما بينها ، كإلخانية فارس بقيادة "هولاكو" و خانية القبيلة الذهبية بقيادة "بركة خان" ، و هذا أُعتبر من نتائج الغزو المغولي و توسعهم في العالم .

7 -فشل المسيحيين في تنصير المغول ، لأن الإسلام كان أقرب إلى قلوبهم .

8 -أدى دخول "بركة خان" في حلف السلطان "الظاهر بيبرس" إلى توطيد العلاقات بين المملكتين ، و حتى على الصعيد الشخصي عن طريق المصاهرة التي تمت بينهما .

كان تأثير الإسلام تأثيرًا بالغًا في نفوس المغول ، حيث تأثروا نتيجة اختلاطهم بالمسلمين الذين نشروا الإسلام عن طريق الدعوة بالأخلاق الحميدة و الكلمة الحسنة و هؤلاء السفراء ، هم التجار المسلمين و الطرق الصوفية ، فقد كانت للطريقة الكبراوية الفضل في اهتداء بركة ، الذي وقف في وجه ابن عمه للدفاع عن الإسلام و المسلمين ، و كان أول نصر للإسلام في الساحة المغولية .

الملاحق

ملحق رقم (01)

رسالة القائد" بيسُو نُوغَاي "الى السلطان" الظاهر بيبرس."

صدر هذا الكتاب من" بيسو نوغاي "إلى السلطان" الظاهر بيبرس"

«أحمد الله تعالى على أن جعلني من جملة المسلمين و صيرني ممن يتبع الدين المستبين و بعد فان كتابنا هذا محتمل على معنيين أحدهما التحية و السلام منا إليك و الثاني أنا سمعنا من أربوغا أنّه لصدق عهده مع أبيتا بركة خان استخبر عن أولاده و أقربائه ومن أسلم منهم فلما خبّر هذا الخبر أخلصنا المحبة للملك الظاهر الوفي بالعهود و قلنا ما استخباله عنّا الا لحميته في الإسلام وصدق نيته في تجديد العهود و كتبنا هذا الكتاب على يد ارتيمو و تُوق بُغا معلمًا أنا دخلنا في الإسلام و آمنا بالله و بما جاء من عند الله و برسول الله ، فيثق بما قلناه و نستن بسنة أبينا بركة خان و نتبع الحق ونجتنب البطلان و لا نقطع إرسال المكاتبة فنحن معك كالأنامل لليد نوافق من يوافقك و نخالف من يخالفك [1]» .

[1] الدوادار بيبرس المنصور :زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ص131 .

ملحق رقم (02)

رسالة السلطان" بركة خان "الى السلطان" الظاهر بيبرس :

«وفي هذه السنة وصلت رسل بركة خان و هم :الأمير جلال الدين بن القاضي والشيخ نور الدين علي وغيرهم ، مخبرين بإسلامه و على أيديهم كتاب منه يتضمن ذكر من أسلم من بيوت

التتار و تفصيلهم بقبائلهم و عشائرهم و أنفارهم و عساكرهم وصغيرهم و كبيرهم ، قال : ودخل في ديننا الإسلام إخواننا الكبار و إخواننا الصغار و ذراريهم ، أولاد بوداكور بحشمهم وأولادهم بلاد كوكاخور، ينشونوقا ومن في بلادهم : قودعو، و قراجار ، و نتش بغا وشرامون وبورباكور، ومنكقدار بجيوشه و سواده ، و بك قداق باينال ، و ايكاكوا ، كل هؤلاء أسلموا بأسرهم ، وأقاموا بالفرائض و السنن ، و الزكاة و الغزاة ، و الجهاد في سبيل الله

"الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" سورة البقرة الأية 275.

فليعلم السلطان أنّي حاربت هولاكو الذي هو من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا ، تعصبا لدين الإسلام لأنّه باغي ، والباغي كافر بالله و رسوله ، و قد سيرت قصادتي و رسلي صحبة رسل السلطان ، وهم : اربغا ، وارتيمو، و أوناماس ، ووجهت ابن شهاب الدين غازي معهم لأنّه كان حاضرا في الوقعة ، ليحكي للسلطان ما رآه بعينه من عجائب القتال ، ثم لنوضح لعلم السلطان أنه موفق للخيرات و السعادات ، لأنّه أقام إماما من آل العباس في خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله ، فشكرت همته ، و حمدت الله تعالى على ذلك ، لاسيما لما بلغني توجهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد ، واستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفار، تاريخ هذا الكتاب مستهل رجب سنة 666 هـ»[1]

[1] العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ص17

الجدول رقم (01)

جدول خانات القبيلة الذهبية

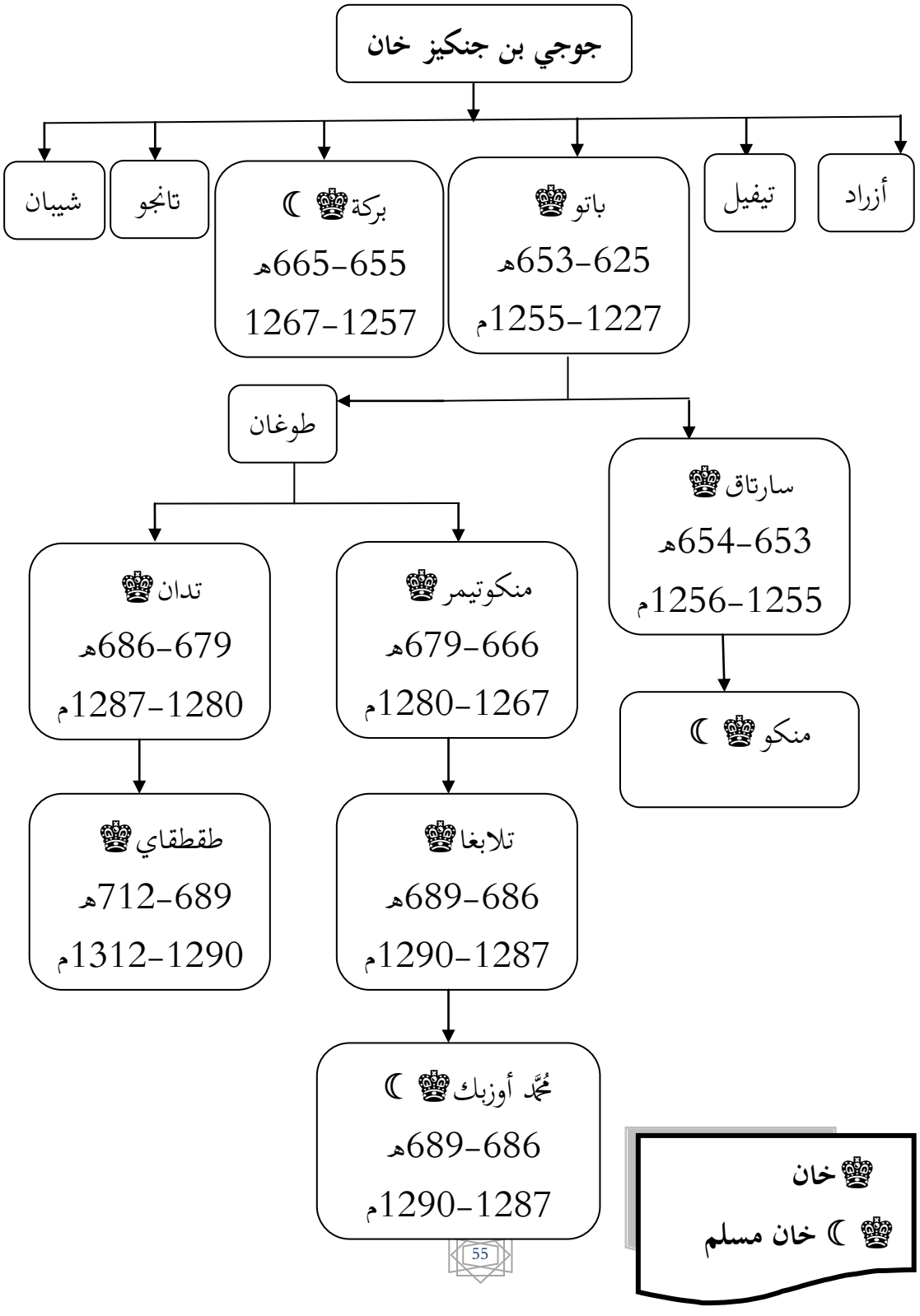

الجدول رقم (02)

جدول خانات المغول العظام

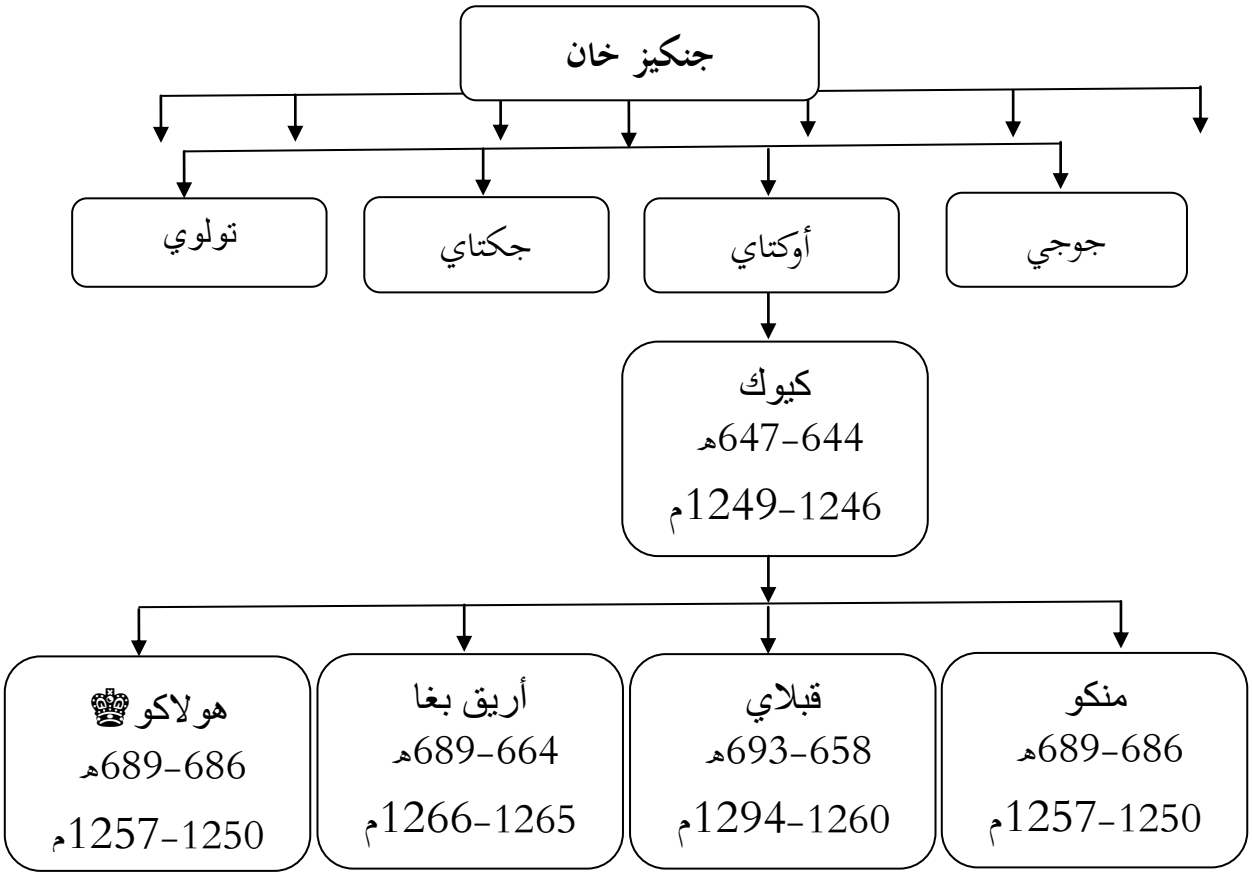

جدول رقم (04)

جدول يوضح بعض الزوايا في مملكة السلطان مُحَمَّد أوزبك

شبه جزيرة القرم (مدينة كفا)	زاوية الشيخ زاده الخراساني.
مدينة سُجَاق	زاوية الأمير تلكوتمور.
مدينة أزاق	زاوية الشيخ رجب النهر ملكي.
العاصمة سراي	زاوية الحاج نظام الدين. زاوية الإمام العالم نعمان الدين الخوارزمي[1]
خوارزم	خوارزم زاوية الشيخ نجم الدين كبرى[2] زاوية جلال الدين السمرقندي.
بخارى (مدينة فتح آباد)	زاوية الشيخ سيف الدين الباخرزي[3]

[1] العالم نعمان الدين الخوارزمي : أحد العلماء البارزين في القبيلة الذهبية ، و ذكر الرحالة" ابن بطوطة" أنّ السلطا ن"مُحَمَّد أوزبك " يأتي لزيارته كل يوم جمعة و يقعد إليه و يتواضع له ، ابن بطوطة : .المصدر السابق ، ج2 .، ص28 .

[2] تقع هذه الزاوية خارج مدينة خوارزم ، و بها قبر الشيخ نجم الدين كبرى و كان القائم عليها في تلك الفترة الشيخ سيف الدين بن عضبة ، ابن بطوطة : نفس المصدر، ج2 .، ص28

[3] هي زاوية التي كان الشيخ سيف الدين الباخرزي قائما عليها حين زاره بركة خان ، وبعد وفاته دفن بها ، و ذكر ابن بطوطة "أنّ بها أوقافا ضخمة يطعم منها الوارد و الصادر ، و شيخها الشيخ يحي .الباخرزي، ابن بطوطة : نفس المصدر، ج2 ، ص 28.

خريطة رقم (01)

خريطة الإمبراطورية المغولية في أقصى اتساعها و عليها حدود مملكة القبيلة الذهبية.

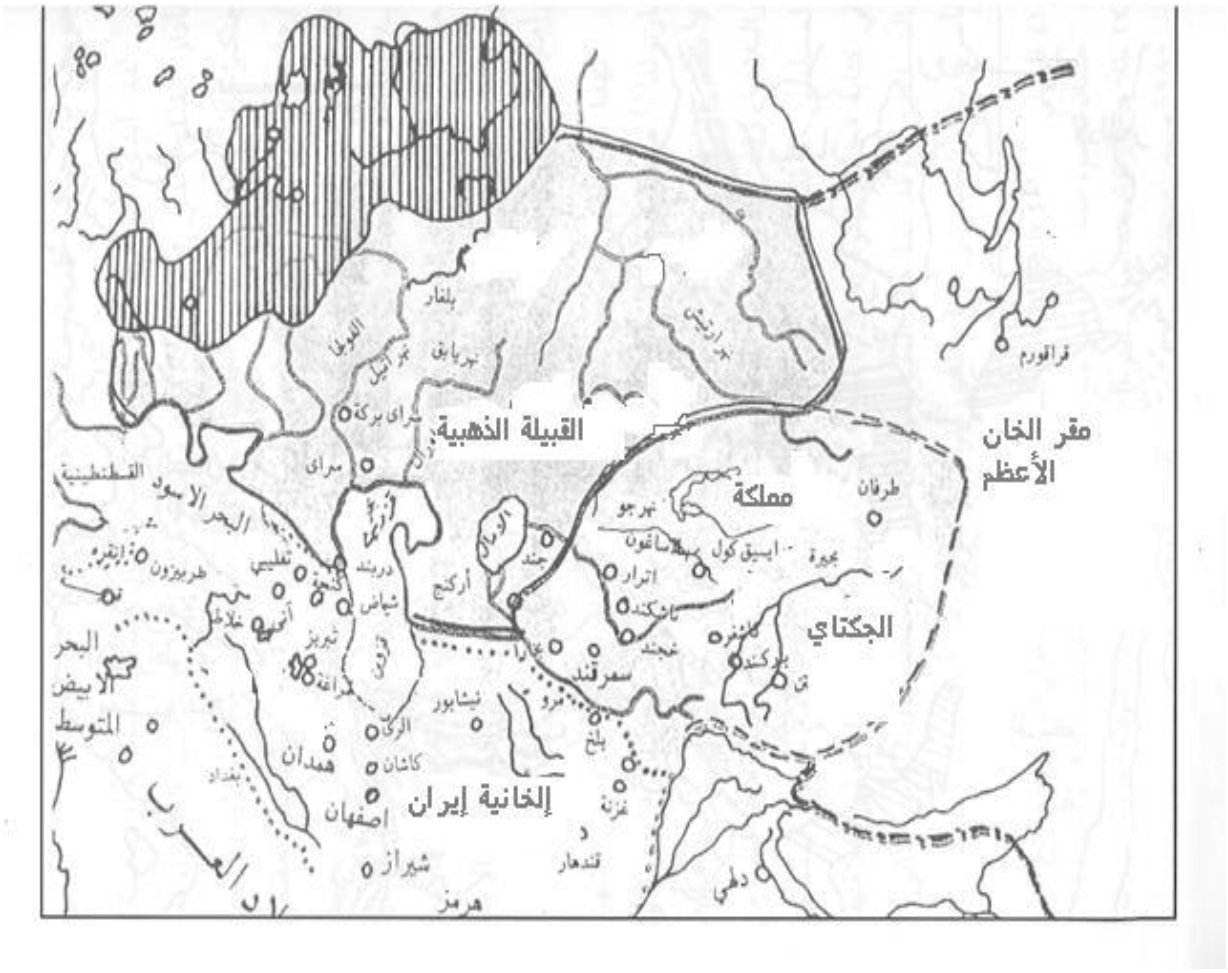

مملكة القبيلة الذهبية

○ المدن

الأنهار

خريطة رقم (02)

موقع سراي [1]

[1] www.marifa.org

خريطة رقم : (03)

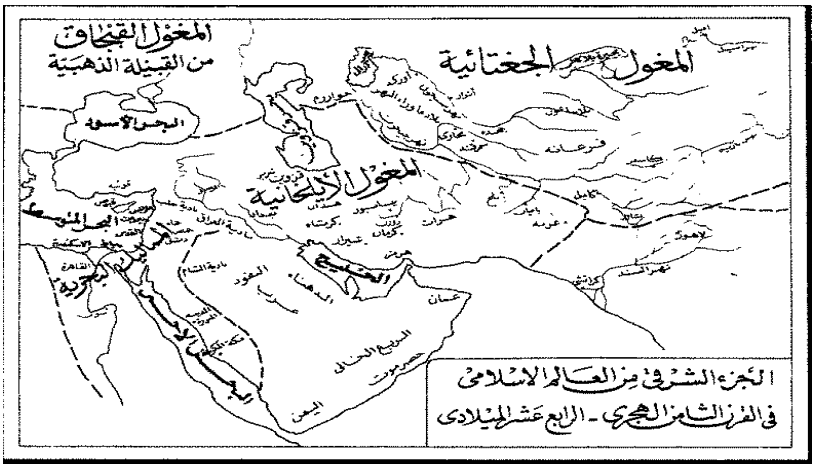
المغول القبجاق
من القبيلة الذهبية
المغول الجغتائية
المغول الإيلخانية
البحر الأسود
البحر المتوسط
البحر الأحمر
الخليج العربي
اليمن
الجزء الشرقي من العالم الاسلامي
في القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي

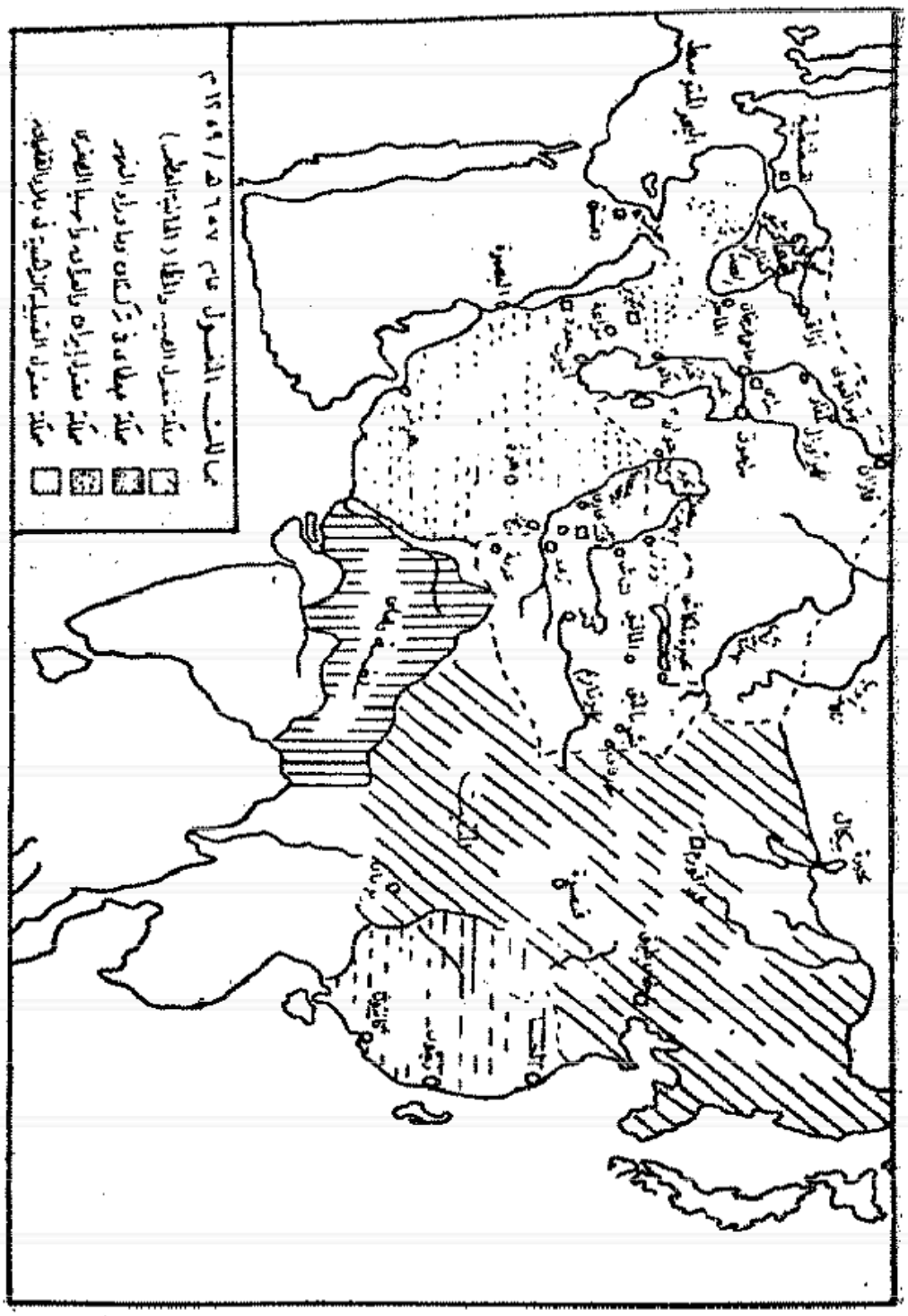

خريطة عن : Saunders : The history of the Mongol Conquests, P. 91.

صورة رقم (01)

صورة السلطان" بركة خان"[1]

[1] http://www.asiaalwsta.co

صورة رقم (02)

مسجد السلطان مُحَمَّد أوزبك

المصادر والمراجع

أولا المصادر :

1) ابن بطوطة ، أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت779هـ/1377م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، مطبعة الأزهر ، مصر، 1346هـ/1928م ، ج1 ،ج2 .

2) ابن ثغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1413هـ/1992م ، ج6.

3) ابن خلدون ، ولي الدين عبد الرحمان بن مُحَمَّد(ت 808هـ/1405م) ، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أخبار العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، بيت الأفكار الدولية .

4) ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل (ت774هـ/1372م) ، البداية و النهاية ، تحقيق عبد الله بن محسن التركي ، هجر للطباعة و النشر و التوزيع ، 1997م.

5) القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت 821هـ/1998م) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف و الترجمة و الطباعة ، القاهرة ، 1418هـ/1989م.

6) الدوادار : الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري ، زبدة الفكر في تاريخ الهجرة ، تحقيق ، دونالدس و ريتشاردز ،الشركة المتحدة للتوزيع ، بيروت ، 141هـ/1989م.

7) الذهبي : شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد (ت 748هـ/1347م) ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق بشار عواد معروف ، و محي الدين هلال السرحان ، بيروت ، مؤسسة الرسالة 1985 ، ج23.

8) الرمزي : تلفيق الأخبار و تلقيح الآثار في وقائع قازان و بلغار و ملوك التتار ، المطبعة الكريمية الحسينية ، أورينورغ.

9) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق ، مُحَمَّد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

10) ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي (ت626هـ/1229م) ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت .

11) ابن شداد بهاء الدين ، تاريخ الملك الظاهر ، تحقيق أحمد حطيط ، فرائز شتاينر بفيسبادن ، بيروت ، 1983 م .
12) جلال الدين السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق : عبد الله المنشاوي ، مكتبة الإيمان ، القاهرة ، 2003م.
13) المسعودي ، مروج الذهب و معادن الجوهر ، تحقيق : مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، ج1 .
14) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تحقيق : أبو الفداء عبد الله القاضي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1418هـ/1997م ، ج8 .

1) ثانيا/ المراجع :

2) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة : أحمد السعيد سليمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1996م .
3) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين إسماعيل النحراوي ، مكتبة النهضة المصرية ، 1972م ، القاهرة .
4) رجب مُحَمَّد عبد الحليم ، إنتشار الإسلام بين المغول ، دار النهضة العربية ، 1986م .
5) فؤاد عبد المعطي الصياد ، المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1980م .
6) مُحَمَّد سهيل طقوش ، تاريخ المغول العظام و الإيلخانيين (602 – 772هـ/1206 – 1370م) (651 – 756هـ/1253 – 1355م) ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان 1428هـ – 2007م .
7) تاريخ مغول القبيلة الذهبية و الهند ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، 1428هـ – 2007م
8) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، 2008م .
9) محمود سعيد عمران ، المغول و أوربا ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، د ت،
10) كيف أسلم المغول ، دار الفتح ، الأردن ، 1429هـ/2008م .

11) محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي ، المكتب الإسلامي ، 1421هـ/2000م .
12) العبادي أحمد المختار ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر و الشام ، دار النهضة العربية بيروت ، 1969م .
13) العربي سيد الباز ، المماليك ، دار النهضة ، بيروت ، بدون تاريخ .
14) نوار صلاح الدين ، الطوائف المغولية في مصر و تأثيراتها العسكرية و السياسية و الاجتماعية و اللغوية و العمرانية في عصر دولة المماليك البحرية (658 – 783هـ/1260 – 1381م) ، منشأة المعارف الإسكندرية ، 1996م .

ثالثا/ الرسائل الجامعية :

- أحمد جلايلي ، إسلام مغول تركستان (جغتاي) (624 – 808هـ/1227 – 1405م) ، جامعة الجزائر ، قسم التاريخ .

1) رابعا/المجلات :

2) لبيب صبحي ، سياسة مصر التجارية في عصر الأيوبيين و المماليك ، المجلة التاريخية المصرية مطبعة الجيلاوي ، 1981 – 1982م .
3) مصطفى ثامر نعمان ، الزواج السياسي في عصر المماليك البحرية (648 – 748هـ) ، ج7 ، مجلة كلية التربية ، جامعة واسط ، العدد:2 ، 2007م .
4) مُحَمَّد بن ناصر العبودي ، التتار و البلغار ، مجلة دعوة الحق ، العدد : 18 ، مكة 1420هـ .

خامسا/ المراجع باللغة الأجنبية :

1) Rubruk williem ,Voyage de guillaum de Rubriquis , libairie de la grave , paris , 1888

سادسا/ المواقع الإلكترونية :

1) http://www.alsharq.net.sa
2) http://www.assiaalwsta.co

فهرس المحتويات

شكر و تقدير.....

إهداء.....

مقدمة **07-04**

الفصل التمهيدي : لمحة تاريخية عن المماليك ومغول القبيلة الذهبية(**08-11**)

المبحث الأول : المبحث الأول : أصل اسم القفجاق (القبشاق) أو (القبيلة الذهبية).....08

المبحث الثاني : المبحث الثاني : تاريخ المغول.....09

المبحث الثالث :المبحث الثالث : تأسيس دولة المغول.....10

الفصل الثاني : قيام دولة المماليك (12-27)

المبحث الأول : أصول المماليك و نشأتهم.....12

أولا:نشأة المماليك 12

ثانيا : أصول المماليك.....14

المبحث الثاني :المبحث الثاني : جهود المماليك في دحر الحملة الصليبية السابعة.....16

أولا : معركة المنصورة 17

ثانيا:تورانشاه يقود المعركة.....18

المبحث الثالث : سلطنة المماليك بين شجرة الدر وعز الدين أيبك.....19

أولاً: شجرة الدر.....19

ثانياً: سلطنة عز الدين آيبك.....20

معركة بين المماليك والأيوبيين.....21

سلطنة على ابن المعز ثم تولي سيف الدين قطز.....22

ترتيب سيف الدين قطز للأمور الداخلية.....25

الفصل الثالث :مغول القبيلة الذهبية و الإسلام (28-37)

تمهيد.....27
المبحث الأول :إسلام بركة خان.....28
-اعتلاؤه العرش.....31
المبحث الثاني :- سياسته و أعماله.....32
المبحث الثالث : عوامل انتشار الإسلام بين مغول القفجاق.....33
ثانيا –1 دور خوانينالقبيلة الذهبية.....33
ثانيا-3- دور التجارة و التجار المسلمين في إسلام مغول القفجاق.....35

الفصل الرابع : العلاقات الخارجية و المظاهر الحضارية لمغول القبيلة الذهبية (38-49)

المبحث الأول : المظاهر الحضارية الإسلامية للقبيلة الذهبية.....37
-1- المراكز الثقافية و المساجد.....37
-2- الحياة العلمية.....38
-3-المدن و الحواضر.....40
- العاصمة "سراي".....40
المبحث الثاني :علاقات القبيلة الذهبية..... 43
العلاقات مع المسلمين (دولة المماليك).....43
- 1-العلاقات السياسية.....43
أ -العلاقات الدبلوماسية.....43
ب - علاقات المصاهرة.....46
- 2-العلاقات التجارية.....46

خاتمة 49
الملاحق 52
المصادر و المراجع..... 78
الفهرس..... 83